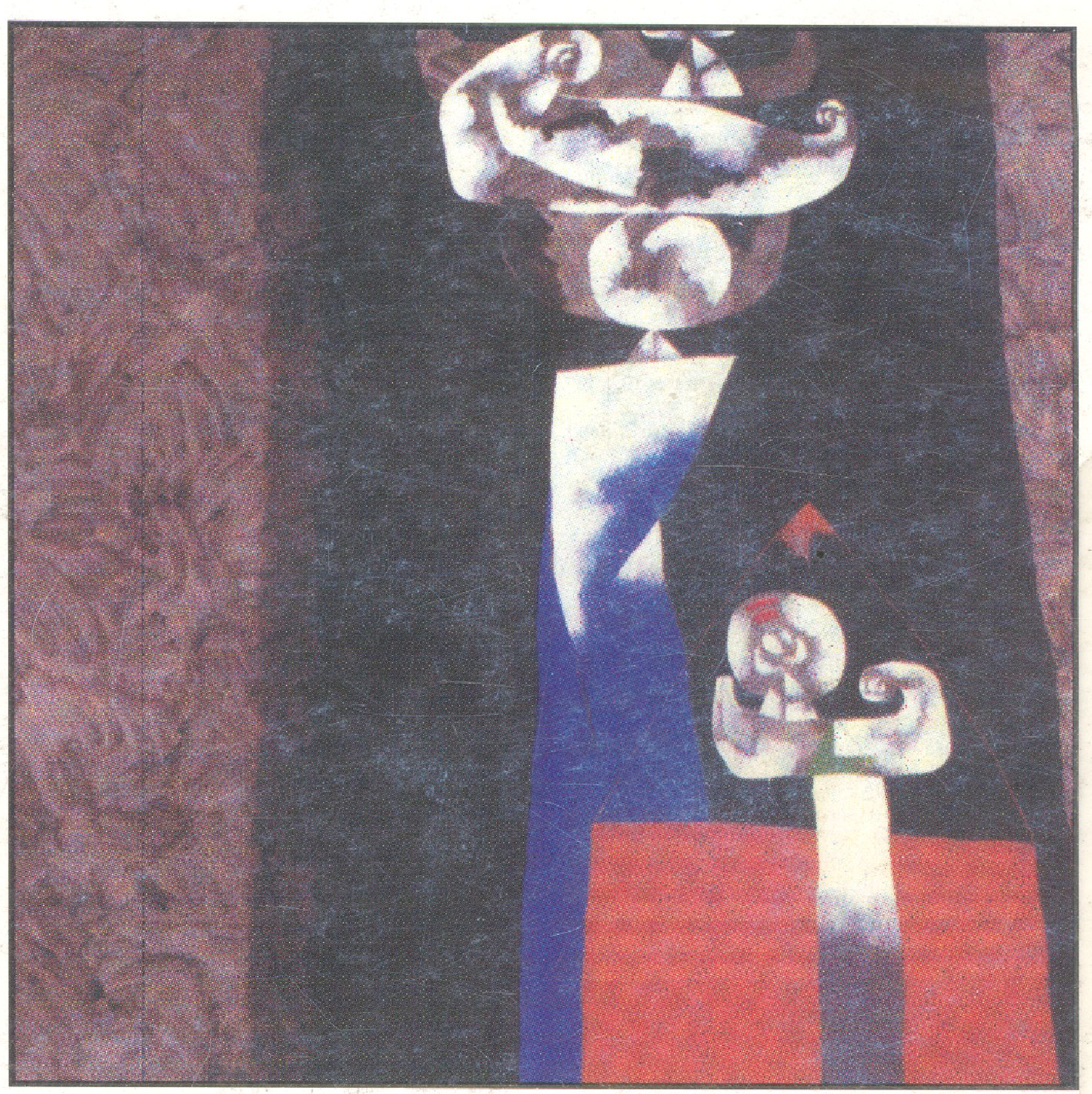




زهرة الصندل

رواية



اللوحة للفنان: مصطفى عبد المعطى

وليد إخلاصى



الهيئة العامة
لقصور الثقافة

آفاق عربية

رواية

زهرة الصندل

وليد إخلاصي

الهيـــئة العامة لـــقصور الثقـــافة

آفاق عربية (58)

(شهرية)

أكتـــوبر / 2002

زهـــرة الـــصـــنـــدل

وليـــد إخـــلاصـــى

تصحيح لغوى :

أسامة عبد الهادى

المراسلات باسم مدير التحرير :

على العنوان التالى :

١٦ (أ) ش أمين سامى - القصر العينى

القاهرة - رقم بريدى : ١١٥٦١

إلى العزاء الأكبر
محبة الوطن

وليد اخلاصي

-١-

القسم الأول

بدت أمارات حزن عميق على وجه الجدة وهوب، وكانت هى المرة الأولى التى ألمح فيها مثل ذلك النوع من الحزن على الوجه الجميل، فأصاب بهزة فى أعماقى تشبه الرعشة التى تصاحب زلزالا خفيفا. كنا قد احتفلنا منذ يوم واحد بعيد ميلادها المائة إن صحا لتقويم، وصدقت أوراق زواجها التى مهرت بأختام الدولة العثمانية فى القرن التاسع عشر .

كان الحشد كبيرا، والغرفة المعتمة تضيق برجال الأنصارية الذين وقفوا خلف الجدة وهوب وهى ترش وجه عمة أبى «عيشه» بماء الورد، وتتمتم بآيات غير واضحة، وتمسح على الخدين والجبين بكفها الأملس المشدود كرق الغزال. لبث الجميع صامتا إلى أن قالت لى الجدة وقد اختارتنى من دون الرجال جميعا:

«يا أحمد، اقرأ للمرحومة عمتك من سورة آل عمران، فقد

كانت تحبها» ثم أمسكت بعصاها التى صنعها لها واحدا من أبناء عمى من شجرة الكرز اليابسة، وراحت تدب بها على البلاط الذى انتشرت على وجهه بثور عميقة، فأفسح لها الرجال طريقا وهم ينكسون الرؤوس بحزن متوحد طالما جعل من وجوههم متشابهة فى مثل هذه المناسبات. وجلست اقرأ عن ظهر قلب من الآيات التى أحفظها، وعيناى تتعلقان بالعمة عيشة، بينما علت أصوات النحيب من الغرفة الأخرى وحوش الدار، حيث تجمعت نساء الأنصارية وأطفالها مع مابقى من جيران فى الحى .

كان الوقت صباحا والشمس لم تلامس بعد سوى تاج الجدران العالية للانصارية، وقد رحلت عيشة منذ ساعات، وبعد آلام السرطان المبرحة التى استمرت تنخر فى الجسد النحيل عشر سنين متواصلة لا تميز بين ليل أو نهار. منذ الطفولة وأنا أراقب بسمة المقاومة تضم الشفتين الرقيقتين، فلا أفهم معنى لارتباط المرض بالابتسامة. ومع بدء اهتمامى بالفنون خيل إلى إن المرأة التى فى لوحة (الجيوكندا) كانت تعانى من مرض قاتل أدى إلى مصرعها مع انتهاء الرسام من عمله .

عيشة التى طالما أحببتها، كانت تشبه أمها وهوب، ولكنها لم

تكن تملك تلك العينين الزرقاوين تلمعان فى الظلمة وهى تتفقد أرجاء الأنصارية كل ليلة، وكأنها حارس مكلف بتقديم تقرير يومى عن حالة الأمن والعتمة. وكنت أتطلع إلى وجه الميتة دون خوف بعد أن تعودت لسنين طويلة مشاهد الموت فى الدار الكبيرة. لابد أنها تحس بالطمأنينة فابتلعت ابتسامتها لتحتفظ بها سرا فى داخلها. لابد أن العمة عيشة تحس بكل ما يجرى من حولها، كما يحدث لى وأنا ازداد جهلا بالمرض الذى حاولت أن أفهم عنه شيئا. ورغم أنى مازلت فى السنة الثانية من كلية الطب، إلا أننى بذلت جهودا مضنية للقراءة عن ذلك المرض المرعب فلم أحصل إلا على التسليم بحادثة الموت التى دخلت علينا من نافذة مفتوحة أو ربما من فرجة باب منسية، وكانت أواخر تلك الليلة الماضية بداية لرحلة العمة عيشة فى مجهول لم أقتنع به بعد .

كان الوهج قادما من السماء، فبدا فضاء الأنصارية للحظات مرت وكأنه مئزر مقصب ينتفخ من نور مشتعل، ثم يخبو كل شىء. آنذاك انتفضت الجدة وهوب فى مقعدها وصرخت بصوتها الخفيض الواثق وهى تشير إلى مرقد العمة المريضة: «تفقدوا عيشة».

فهرعت إليها، ومن خلفى ابن العم الدكتور حافظ الذى كان قد حضر من بيته البعيد للزيارة اليومية. ووجدناها هناك يابسة، وقد تقلصت جلدة وجهها ونفرت عروقها، وتباعدت شفتاها الزرقاوتان، فضممتها إلى صدرى بحنان واغمضت. ثم بدأت الجدة بعد ذلك بتلاوة الآيات الأولى من سورة «يس» التى كنت قد حفظتها عن ظهر قلب لكثرة ماسمعتها تتلى على الأموات من عائلة الأنصارى .

وفى ذلك اليوم قالت الجدة الكبيرة من جديد كعادتها:

«البكاء حرام يا أولاد، ودعوا ابنتى عيشة بالآيات فهى تفرش الطريق إلى الجنة» ثم هامت على وجهها فى الدار، لتحط فى نهاية خطواتها البطيئة عند القبور الثلاثة التى تتوسط حوش الأنصارية الخارجى، وتجلس هناك مسندة ظهرها إلى قبر زوجها الذى كان يتوسط قبر أبيها عن يمين وابنها البكر أحمد جدى عن شمال.

كانت القبور صناديق حجرية، رفع أحدثها خلال الحرب العالمية الأولى ليحتضن جسد جدى الذى قتل بسيف جندى عثمانى نزق، وكان مايزال فى التاسعة عشرة من عمره وقد أنجب أبى الذى ترعرع يتيما فى كنف جدته وهوب.

ويبدو أن حب الجدة لزوجها أحمد قد جعلها تحفظ اسمه فى ولد من أولاده وفى أبناء أولاده أيضاً. وقالت ذات مرة :

«من اسمه أحمد من عائلة الأنصارى ظل رأسا»

ولولا خوف التشابه، لسرى الاسم فى عشرات الأطفال الذين ولدوا فى الأنصارية، ثم حملوا أسماء أخرى لعبت الجدة الدور الأساسى فى انتقائها.

وخرجت الجنازة فى ذلك اليوم وقورة هادئة من باب الدار، وهى أشبه بأفعى رأسها النعش المكلل بالزهور وجسدها يتلوى من حزن وقد ضم مابقى من عائلة الجدة وهوب وعددا من الأقارب والمعارف. وبعد أن كان الرجال يملأون صحن الدار الكبير، سحبتهم الجنازة وراءها، وارتفعت أصوات المشايخ والمؤذنين بالتكبير، فغطت الوحشة مابقى من فراغ الأنصارية، التى ماتزال الباقية الوحيدة فى الزقاق، الذى كشف جانب منه بفعل الخراب أو الهدم، إذ لجأت البلدية فى السنوات الأخيرة إلى إعمال معاولها بقصد تجميل القلعة التى أضيئت بالأنوار الكاشفة .

وقد سار الموكب ببطء ساحبا وراءه كل المشيعين، ليدور نصف دورة حول خندق القلعة، ثم ينعطف إلى الطريق الطويل

الذى يؤدى إلى مقبرة الصالحين، حيث ستلتقى هناك بعد قليل العمة عيشة بعدد كبير من أفراد العائلة، وحيث ترتفع شواهد القبور متماثلة فى ارتفاعها مع أطوال الناس الذين سيقفون وقفة التأمل المعهودة، يراقبون مراسم إيداع الجسد حفرة لم تختلف مقاييسها منذ مئات السنين .

وكانت الجدة وهوب، قد بقيت فى الدار شبه وحيدة، بعيدة عن باقى النساء، تلملم ما تساقط من فروع الزيزفون على الأرض، لتضمها فى باقات صغيرة وزعتها بالعدل على القبور الثلاثة القديمة .

ويمر اليوم عاديا وهادئا، وفى الليل، وبعد أن ينفض جمع المعزين الكبير، أشارت إلىّ الجدة برأسها، فاقتربت منها، فضمتنى إلى صدرها الضامر. وخيل إلى آنذاك أنى أسمع قطرات الدمع فى حنجرتها تسقط على معدتها الصغيرة فتحدث عويلاً حرك الحزن فى داخلى، وتذكرت كل أموات الدار من الذين عاصرتهم أو سمعت عنهم. ويبدو أن العمة عيشة قد عادت إلى من جديد بثوبها الأبيض تعبر نحوى كل الجدران والأبواب، فغمزت رأسى فى حجر الجدة، وخيل إلى أنى أبلل ثوبها بدموعى .

- ٢ -

أشجار هومة، ولكنها تقف كالمآذن العالية الصامتة فى غير أوقات الصلاة. فى صحن الدار انتصبت الأشجار التى ولدت قديماً من التراب، وتشققت جذوعها من تعاقب الأيام الباردة الساخنة المتقلبة فبدا لحاؤها الخشن كطلاسم مكتوبة منذ مئات السنين .

كانت هناك شجرة جوز هائلة، كان قد غرسها فى الدار الشيخ أحمد الأكبر والد جدتنا وهوب. وكثيراً ما قيل إن أغصان الجوز طالت وتفرعت لكثرة ما قرأ الشيخ أحمد القرآن فى ظلها بصوته الجميل الذى جمع الحمام واليمام من كل الأنحاء، فاتخذت لها أعشاشاً فى بقايا السور الذى جمع أطراف الفناء العالية .

ونمت شجرة تين كالشيطان عند الجدار الغربى الذى يفصل الحوش الداخلى عن صحن مدخل الدار. وقد ملأت ثمارها لفترة طويلة السلال التى يحملها الأطفال إلى الجيران والأهل كهدايا

موسمية وحتى قيل فى مضرب الأمثال «كتين وهوب» إذا ما ذكرت الحلاوة أو تحدث الناس عن الجمال .

ولم يبق من النارنج سوى أربع أشجار من مجموعة كبيرة كان العم مصطفى آخر الراحلين من ذكور الجدة قد زرعها فى زوايا الفناء الأربعة. وصمدت دالية للزمن. ولكن أوراقها الخشنة ظللت مساحة كبيرة من الحوش والبركة التى ركدت مياهها، بينما الطحالب والأعشاب تغطى وجهها بطبقة رقيقة لاتمنع العين من مراقبة السمك الأحمر، الذى حرصت عليه العمة عيشة حتى آخر لحظة من لحظات حياتها بالعناية به .

وإلى جانب الشجيرات الصغيرة والنباتات الأخرى التى تولد وتموت فى كل عام.

كانت الأشجار الهرمة تقاوم الموت بفروع جانبية شقت لها طريقاً من جسد الجذوع، فأورقت وأزهرت وأثمرت، وفى غير مواسمها أحياناً كان احتفالاً لنا أن نشاهد تورق الأشجار قبل أوانها، فتهتف الجدة بتفاؤل يدخل الفرح إلى القلوب :

«أتشاهدون يا أولاد، حرارة الأنصارية، سمحت للبراعم أن تتفتح».

وفى اليوم الثالث لرحيل العمة عيشة عن الدار، تجمعت

النسـوة فـى الغرفة التى دعم سقفها منذ سنين قليلة بـأخشاب الحـور، وأمـا الرجـال فـقد جلسـوا متـراصين من الليـوان الذى كشف سـقفه العالى للسمـاء، وتدلت منه بقايا الألواح الخشبية المزخرفة تنذر بخطر لم يأبه له أحد، بينما انطلق صوت القارئ الكفـيف يتلو آيات الله، فـخشـعت الأبصـار، وسمـعت طقطقات المسـابح بين الأيدى وكـأنها ابتهالات لروح الأموات الذين ذكرت أسـمـاؤهـم فى أحـاديث جـانبـيـة لم تثـر سـوى التـحسـر. وكـان القارئ مـألوفاً، فاعتـادت عليه العين، خلال السنين الأخيرة، وكان من قـوة الذاكـرة، أن كـان فى أوقـات راحـتـه يسـتـذكـر اسـم من يناديه ويكلمـه فيقول له مـحدثاً «كيف حـالك يـا فـلان» أو «كيف حـال ابن فـلان» وكـأنه يقـرأ بأذنيـه شـخـصـيـة الحـاضـرين فى أصـواتهم، وقد أضـافت ورح القـارئ الكفيف المرحة الذكية جواً من الألفة، قلب الحزن الاجتماعى الواجم إلى مناسبة ذكرت فيها جوانب مختلفة من تاريخ الأنصارية وأخبار رجالها الطريفة التى تميز بعضها بالغرابة .

لقد بدت لى أن الآيات التى يرتلها القارئ واحدة لا تتغير فى المناسـبات المعادة، وكثـيراً مـا كنت أرافقه بسرى فـى القراءة، فـأشـعـر بأن الزمن لايتـحـرك، وبأن مـا جـرى فى أيام الطفـولة

الأولى مازال قائماً في تلك اللحظات. ولولا الشيب أو التعب الذى أصاب الرجال، لكنت حسبت نفسى ذلك الصبى نفسه الذى مازال يوزع القهوة المرة على المعزين ورأسه مطرقة إلى الأرض بحياء يلازم أهل الدار أيام المصائب .

أصرت الجدة وهوب على أن يستمر تقديم العزاء ثلاثة أيام متتالية، رغم أن الكثير من العائلات الحلبية جعلت تقتصر على يومين فى أفضل الأحوال. وكان إصرار الجدة لايرد ورغم أن مابقى من أفراد الأسرة كان لا يستهان به، إلا أن إقامتهم خارج الأنصارية وفى مناطق مختلفة من المدينة لم يمنع من استجاباتهم لأوامرها ليس فى التعازى وحسب وفى كل المناسبات الأخرى. وفى تلك الأيام. كان رجال العائلة يصطفون، كهولهم وشبابهم وصبيانهم، بدءا من مدخل الحارة إلى الباب الرئيس للدار، يودعون ويستقبلون. بينما النسوة والصبايا من العائلة، بالاضافة إلى الكنات، يقمن بتقديم واجب الخدمة التى كانت تؤدى بنشاط كبير، أيام الموت والزواج والنجاح فى الشهادات، على أكمل وجه، ورغم الغلاء الذى بات مستفحلاً فى نهاية السبعينيات، فإن الطعام المنتشر على الموائد المفتوحة للغريب قبل القريب، كان يفيض منه مايكفى لاجتذاب الفقراء

الذين تعودوا تقصى أخبار الأنصارية للشبع والدعاء من عند ذلك للسيدة الكريمة وهوب .

وفى اليوم الثالث، يكاد الحزن على فقد الأحبة أن يصبح ذكرى. هذا ما علمتنا إياه الجدة. كانت تقول دوماً :

«يصبحون ذكرى.. فيعيشون أكثر فى قلوبنا. الموت بداية لهم لكى تتبدى الذكرى» وأما العمة عيشة التى قضيت عذراء، فقد ظلت أياماً بعد (الثالث) بصورتها التى لاتنسى، وحيدة حزينة فى موتها الكئيب الذى أخرج شيخوختها من السكينة الوادعة إلى التقلص المثير للأسى الذى لايهدأ .

أذكر، أنها روت لى فى طفولتى المبكرة حكاية سرية عن حب مازال يعيش فى مخيلتى ولا أعتقد أنه يمكن أن يغيب. حدثتنى، وهى المعلمة البارعة، وقبل إحالتها إلى التقاعد بسنين، عن شاب جميل، يلف خصره النحيل شال عجمى يتدفق بالألوان. «يخطر بقوامه فى طريق القلعة متجهاً نحو المشربية بعينيه السوداوتين تتعلقان بخيال الصبية الواقف بانتظار لايعرف الملل»

كان صوته جميلاً يقترب بدندنات رخيمة.

«كل أناشيده التى تتغزل بالرسول عليه الصلاة والسلام، كانت للصبية»

وكانت العمة عيشة قد ابتسمت وهي تحكى بصوت خفيض حكاية لا أول لها ولا آخر، وهى التى لم تعرف الابتسامة إلا لحركة طفل صغير من أولاد العائلة يرتكب ذنباً لا يعلم عنه شيئاً «كانت الصبية تعلم أن الشاب الجميل وهو ينشد، كان محباً.. ولكن النصيب يا أحمد.. النصيب»

ثم تغرق عيناها بظلال من دموع قاسية ورثتها عن أمها. وباتت الدموع القاسية من صفات عائلة الأنصارى، بدءاً من الجدة وهوب، وانتهاء بأصغر الأحفاد. حتى قيل فى حى الفرافرة الكبير، إن الأنصارية لا تعرف البكاء، وإن قلوب رجالها من حجر، وأما نساؤها فلا تدمع عيونهن إلا بسبب الرمال التى تحملها رياح الصحراء فى أيام الصيف الحارق، أو بسبب رائحة البصل الذى كان ومايزال يستهلك فى الأنصارية كما لايستهلك فى أى دار أخرى .

كان وقع (النعيب) على حارقاً حين أحسست بالحب لأول مرة. ولكن الجدة وهوب التى مافتئت تكرر فى كل مناسبة "

«بالخبز والبصلة تعيش العائلات المستورة أيام الشدة، وبالصبر تمر الأيام عليها دون أن تهدم الأمل»

فتعلمت أشياء كثيرة، منها الصبر والتلذذ بالاحتمال.

ورغم الشدة، فقد عاشت فى تلك الدار الكبيرة، عشرات العائلات الصغيرة، التى ترعرع أبناؤها وكبروا وتعلموا وهاجروا وانتقلوا إلى أحياء جديدة، ويقيت الجدة وهوب تودع المسافرين والمغادرين والأموات، وهى ما تزال تحتفظ بعودها الصلب، فتنتصب به فى صحن الدار كأقسى شجرة تقاوم الجفاف .

-٣-

وكنت وأمى المقعدة الأرملة رغم شبابها، آخر من يعيش مع الجدة وهوب من نسلها. وكنا نحن الثلاثة، نشغل الدار الكبيرة التى كانت تضم إليها عشرات الغرف واللواوين والأقبية والسقائف التى سكنها الغبار والأثاث العتيق. وكانت غرفتى وأمى قريبة من غرفة الجدة، ولايفصلها عنها سوى ليوان صغير هبط سقفه، فبات ممراً نمت فى ترابه أعشاب غزيرة ستصبح أشواكاً فى الصيف، وتشاهد فيها أحياناً بعض الأفاعى الصغيرة التى حرمت علينا الجدة قتلها، احتراماً للأم الكبيرة ساكنة الدار وحاميته. كانت تقول للأولاد الذين تستهويهم ملاحقة الأفاعى والحشرات.

«لكل بناء ساكنته، وهى لها الحق فى الحياة»

وقد ظل خيال الحية يداعب خيالى، ولم أشعر بالخوف من تصورها مرة، وإن كنت أتوق إلى رؤيتها لأرى كيف هى تطوق الدار بجسدها الأملس، كما تفعل تلك الحية العظيمة التى كان

يقال إنها تلف بجسدها القلعة سبعة أدوار كاملة.

وكانت الأنصارية، رغم خلوها من سكانها، تمتلئ عصر كل يوم تقريباً بالأطفال من أبناء عمومتى، يتوافدون علينا يلعبون ويمرحون، وكأن بهم شوقاً دائماً للعودة إلى الروضة التى ربى فيها أباؤهم وأجدادهم من قبل. وأما الجدة وهوب التى تشرق بوجهها لسماع أصواتهم، فكانت توزع عليهم الحلوى التى لم تنقطع يوماً عن الدار. وكثيراً ما كانت سماء الدار تعج بروائح الزيت أو السمن المقلى، بينما الأطفال يتخاطفون (اللقم) و(اللوزينج) ويركضون بغنائمهم إلى الزوايا وجذوع الأشجار يتلذذون هناك بحلوى الجدة وهوب، وفى الأمسيات. وكان أبناء العمومة وزوجاتهم وبنات أعمامى وأزواجهم، يتوافدون فرادى أو جماعات، ليتحلقوا حول الجدة التى تتصدر الليوان الكبير، أو غرفتها فى أيام البرد، يستمعون إلى حكاياها ونصائحها، فلا يستطيع أحد أن يجادلها أو يرد إليها أمراً، أو أنهم يرمون عند سمعها بكل همومهم فلا يجدون إلا الرأى الذى لا رأى بعده .

وقبل يوم واحد من وفاة العمة عيشة، تجمع أفراد العائلة من الباقين فى المدينة، وكانوا لايزيدون على ثلاثين، تحت العريشة بملابسهم الجديدة وأياديهم تقبض على صناديق الهدايا التى

قدمت إلى الجدة وهوب احتفالاً بالعيد المئوى الأول لها.

وفوجئت الجدة بأبنائها يحضرون كما يحدث فى الأعياد فلبست ثوباً مقصباً وزينت صدرها بالكردان الذهبى الذى تعرفت إليه للمرة الأولى، فبدت لى كأميرة أسطورية، وبينما كانت تتلقى القبل والهدايا، كانت الحياة تدب فى الدار، وتعلو دندنات الرجال بموشح قديم طربت له الجدة فشاركتهم الغناء الذى غطى الجدران العتيقة بالبهجة فلمعت شمس الأصيل وانشقت السماء عن لون ألمح مثله من قبل .

وحكت الجدة وهوب حكاية عن أيام زواجها فى القرن الماضى، فدخل صوتها القلوب، حتى خيل إلى أن منوماً مغناطيسياً قد سيطر على الجو، فتعلقت الأبصار شاخصة بالعينين الزرقاوين بحنان وقوة لا مثيل لتناقضهما. شىء واحد لم أكن لأتصوره رغم كل الكوارث التى حلت بالناس والأحجار والأشجار فى الأنصارية، وهو رحيل الجدة وهوب ذات يوم. وكنت أسأل نفسى :

«هل يكون لها يوم أيضاً؟»

«هل يجرؤ الموت على الاقتراب من الجدة وهوب»

«لماذا الموت قد عرف الطريق إلى الأنصارية، وكأنه الشمس

لا تغفل عن زيارتنا كل يوم»

كان صمت قصير قد خيم على الجميع، حين هتفت الجدة بى:

«تعال يا أحمد»

وكان الكل يعرفون أنى الأثير فأحاطونى بالمحبة. قالت لى :

«اقطف لنا ذلك العنقود»

وتطلعت إلى الدالية التى غطت أوراقها خيوط العنكبوت وآثار الحشرات، فلم أجد أى عنقود يقطف، فلبثت ساكناً لا أجرؤ على معارضتها. وكررت الجدة بإصرارها الهادئ : «ضع السلم هناك وستجد العنقود»

فتبادلت النظر مع الاخرين. هتفت الجدة من جديد «إنى أراه هناك، كبيرا وناضجاً. اقطفه»

فلم أملك من أمرى سوى أن أبحث بيدى الممتدة بين الأوراق المتجمعة الخشنة متشككا، فوجدته. كان العنقود الكبير ناضجاً باللون الأحمر، فأخذته منى الجدة لتضعه فى صينية من نحاس أصفر، وهى تردد وكأنها تتلو من الآيات الكريمة :

«عليكم جميعاً أن تأكلوا منه»

وامتدت الأيدى تتخاطف الحبات بسرعة، فكان أن حملت

الجدة بضعاً منها بنفسها إلى أمى المقعدة فى غرفتها فأطعمتها ثم عادت إلى الحفل. كانت أمى التى جاءت غريبة يوم زواجها قد أصبحت واحدة من الأسرة لا تختلف فى سلوكها عن أهل الدار يوم كانت عامرة. ولولا عجزها الذى أقعدها لأصبحت تشبه الجدة وهوب فى كل شيء باستثناء العينين الزرقاوتين تلمعان فى الظلام فتشعله طمأنينة.

«هذه الدالية زرعتها مع ابنى عبد السلام. كان يحب العنب، ولكنه لم يأكله من هذه الشجرة». جاء العم عبد السلام بفسيلة العنب من المغرب فى رحلة له، وغرسها فى التراب الأحمر الذى شمسته الجدة أياماً طويلة قبل أن يصبح للفسيلة جذور ضربت فى الأرض فخاوتها، وبات العنب أحمر مثلها .

«تسكن الشمس ترابنا لكى تمد الشجرة بالحياة مدى العمر»

هذا ما قالته الجدة فى قديم الزمان، واستمرت الدالية فى حياتها وموتها أكثر من نصف قرن. ويوم قتل العم عبد السلام أيام الفرنسيين، تمنت الجدة وهوب أن يدفن ابنها عند أقدام شجرته، لولا أن جثمان القتيل احتفظ به الحاكم الفرنسى يومذاك، ثم أمر فى السر أن يدفن فى (ترا الغرباء) الذى تدفع إليه أجساد الناس الذين لا أهل لهم أو أنهم ليسوا من أهل

المدينة أصلاً. ورغم ذلك فقد أقامت الجدة وهوب يومها مأتما رسمياً حضره وجهاء المدينة وعدد كبير من أهلها، فكانت الجدة تستقبلهم بنفسها وقد شكلت رأسها العارى بأزهار التمرحنة وهى ترفض أن يقدم لها التعزية، فاضطر الرجال آنذاك لتقديم التهانى. كذلك أقامت له الجدة قبراً فى (الصالحين)، وباتت العائلة فى الأعياد تقرأ له الفاتحة رغم أنه مدفون فى مكان آخر مجهول .

- ٤ -

اسمه حسن. واحد من أبناء العمومة، من نسل العم محمد الذى فقد وهو مايزال فى الثلاثين، فى حملة القائد فوزى القاوقجى أيام حرب فلسطين الأولى. حسن كان رساماً تميز بالدقة فسموه المصور، واذكر أنه كره تلك التسمية .

كان قد رسم أباه فى لوحة زيتية، تزين صدره كل أدوات القتال من صف الخرطوش النحاسى، والقنابل اليدوية تربط وسطه بثقل ختم اللوحة.وكانت الجدة وهوب تشير إلى الصور الأربع التى رسمها حسن قبل هجرته، وتقول :

«إنهم يبتسمون لنا لأنهم يقولون إنهم موجودون معنا دوماً»

وكانت صورة أبناء وهوب الأربعة، مازالت تزين صدر القاعة الخارجية المجاورة لمدخل الدار الرئيس، والتى هُجرت لتهدُّم جزء من سقفها الذى حاولنا أبداً أن نسده بالحصر كل عام لمنع المطر والغبار فلم نفلح. وبقيت الصور الزيتية التى مثلت جدى

واخوته عبد السلام ومحمد ومصطفى، رغم تأثرها بالتقلبات الجوية، علائم تستشهد بها الجدة وهوب على وجود الأسرة منذ قديم الزمن وحتى أيام المستقبل القادمة. تحدثت الجدة وهوب طويلاً عن الأيام الآتية بثقة لم أجدها فى أحد ممن قابلتهم فى حياتى، فباتت لى عادة الثقة بأن كل شىء موجود مستمر، رغم ذلك الشىء الذى سموه الموت .

كان حسن قد رسم جدى أحمد عن صورة صغيرة عثر عليها بين أوراقه، سحبت له على الماء أيام الحكم العثمانى، ومن الذاكرة التى نمت وتضخمت بفضل أحاديث الجدة. وأخيراً اكتشفت حقيقة غريبة وأنا أحدق فى صورة جدى، إذ بدا لى وكأنه أنا فى يوم كانت شمسه غاربة تلقى بالظلال الكثيفة على الملامح. ولولا شارباه المعقوفان لتخيلت نفسى أقف بثقة لا حدود لها أحمل بندقية قديمة وأتطلع إلى المستقبل الذى لم يكتب له .

وكثيراً ما أمسكت الجدة وهوب بخدى تقرصه بحنان وهى تقول لى :

«من سرق ملامح من؟»

وتهتف أحياناً وهى تراقب طيور السماء:

«لقد حملتك أحد عشر شهراً. لا تصدق!»

وتتمتم بصوت مسموع :

«سنة إلا شهراً وأنت هنا بداخلى..»

وكنت أسمعها تقول بنبرة حزينة ولكنها قوية :

«غادرت الدار وأنت لم تكمل العشرين. ألم تكبر قليلاً ؟»

وتشير إلى بعصاها، أن امسح الغبار عن اللوحات الأربع، فأفعل. وكان الأمر يتكرر على فى السنة الواحدة أكثر من مرة .

ومع مرور السنين، باتت ملامح الأعمام محفورة فى ذهنى ومخيلتى، فكنت أبحث عنهم بين أبناء الأنصارية الصغار. فأجدهم فى ابتسامة طفل أو بكاء صغيرة. وتألق من بينهم عبد السلام الذى لم يتجاوز الثلاثين من عمره. وكثيراً ما كانت أمه وهوب تتطلع إليه بإعجاب وتهتف .

«انظر إلى هاتين العينين. أليستا زمردتين؟»

وكان الخيال يجنح بى فأتخيل بقعة من الدماء تزين صدره حين اخترقت رصاصة الدمدم قلبه، فخر صريعاً ودفن غريباً، وظل يعيش فى الصورة وكأنه ماثل بيننا لايستطيع فراقاً للأنصارية. كان جماله يذكر بالفرسان العشاق تجتمع فيهم نظرات التصميم بتأملات الوله. ويبدو أن حفيدته ليلى التى كتمت حبها فى قلبى رغم أنها تعيش فى حى آخر، قد أشعل

الحب فى وجودى، فبات هو الهم الأثير إلى قلبى، وباتت هى الشىء الذى لا أستطيع لحظة ألا أفكر فيه. كانت ليلى ومازال اللوحة التى لو رسمها حسن لكان كسر ريشته وتفرغ إلى تأمل ما صنعت يداه وأما صورة العم مصطفى، الذى رسمه حسن، فهى غريبة عن الصور الأخرى. كان الشيخ العجوز الوحيد بين إخوته الشباب. وكثيراً ما كنت أتخيله واحداً من الأولياء الذين دفنوا فى القبلية الشرقية منذ مئات السنين، وباتوا بقبورهم محجاً لطالبى الفَرَجِ يقصدونهم بالشموع والابتهالات. كان العم مصطفى بلحيته البيضاء ينشر فى الدار، وبصوته الخفيض الدافئ كان يجمع حوله الأولاد يحكى لهم عن العائلة التى ربيت مع القلعة فى طفولتها، وانتشر أبناؤها فى كل زوايا الأرض. وكثيراً ما كنا نستيقظ على صوته الحنون فى بكرة الصباح ينشد المدائح وهو يغلى لنا الماء الشاى بالقرفة، وفى الشتاء يضع الزنجبيل فى الكؤوس ويهتف بنا منادياً إلى الاستيقاظ لبدء يوم جديد .

كنت أحبه، ولقد ظننته لفترة طويلة أبا لى بعد أن فقدت والدى وأنا مازلت فى المهد، كان حجره وهو يضمنى إليه عالماً كبيراً سبحت فيه أيام الطفولة. ومع بداية الوعى ارتسم وجهه

السمح فى مخيلتى فلم يفارقنى لحظة بعد ذلك. وعندما قتل العم مصطفى منذ سنين قليلة، تصاعدت الدهشة من وجهى فقد كانت شيخوخته الرائعة أبعد ما تكون عن احتمالات الموت الدموى. قيل إنه اغتيل، وذكر أنه ذهب خطأ نتيجة لمطاردة من رجال المخابرات لسيارة مسرعة كانت تطلق النار بغزارة على مؤسسة حكومية قريبة من دكان العم مصطفى. ومهما قيل أو ذكر، فلقد كان من أوائل الضحايا لفترة من إرهاب دموى سيطول ويسيطر على أمن المدينة ووداعتها. وفى كل يوم من أيام العنف كان وجه العم مصطفى يطل علىّ فى خلوتى أو فى طريقى إلى الجامعة، أو فى الأحلام التى كثيراً ما أيقظتنى من نومى لقسوتها .

وعندما ذهب حسن إلى ايطاليا منذ سنين، وكنت أراسله بانتظام، رجوته أكثر من مرة أن يرسم صورة جديدة للعم مصطفى وهو مضرج بدمائه، فكان يكتب لى معاتبا «لم لا تفكر بالراحل على أنه مايزال يعيش؟»

وقد خلصنى إصرار حسن على الحياة من هموم كثيرة منها مصرع الشيخ الذى كان أباً حقيقياً، فبات المشهد مع الزمن شيئاً أشبه بتصدع الجدران التى مازالت تحيط بالأنصارية.

وكانت إغراءات حسن المتواصلة لكى أذهب إليه فى زيارة أو فى إقامة دائمة، تسبب قلقاً لى، لم يحسمه سوى قول وهوب ذات مرة :

«سيعود يا أحمد صغيراً، وسيرسم لك صورة تبقى ذكراها لأولادك»

وكثيراً ما أعلنت الجدة عن غضبها لرحيله وتقول :

«كان عليه أن يبقى معنا ليرسم كل أفراد العائلة، صغيرها كبيرها»

وفى إحدى رسائلى إليه كتبت:

«لم لم ترسم بعد الجدة وهوب»

فكان أن جاء رده فى رسالة عاجلة مليئة بالعواطف :

«تصور يا ابن العم أننى رسمت صديقتى الإيطالية فى أكثر من لوحة، ولم تكن فى الحقيقة سوى الجدة وهوب. هل تصدق؟!»

- ٥ -

ليلى ابنة العم سعيد، حفيدة عبد السلام. ليلى الطفولة فى أيام الصيف كنا نمد الفرش والبسط السميكة فى الفناء، ونتسابق إلى الاستلقاء عليها. عشرات الأطفال والصبايا الصغيرات والفتيان، ينامون متجاورين فى أرض الأنصارية. نراقب السماء ونعد النجوم فى الليالى الصيفية الصافية كالبللور، ونصغى بمتعة إلى خربشات الفئران على الخشب العتيق ومواء القطط تتسابق على الأسطح المتصلة بالدور الأخرى المجاورة. وكثيراً ما يمتد بنا السهر إلى موعد أذان الفجر فنصغى بخشوع إلى مؤذن الجامع الأموى وهو يمهد للأذان بتسبيحاته الآسرة ومدائحه التى كانت تدخل إلى قلوبنا فنغفو حتى الصباح حتى تغمرنا الشمس فننهض متسابقين إلى مائدة الإفطار التى تشرف عليها الجدة وكأنها داعية إلى وليمة عامرة بالجبن والزيت والزعتر وأنواع المربى التى كانت تتفنن فى صنعها من أجل نمو أجساد أبنائها. وكانت ليلى الصغيرة

آنذاك ناعمة ونحيلة وتبدو فى ثوب النوم الطويل وكأنها الجدة وهوب .

كيف ولدت الجدة كل هؤلاء، وهى الضامرة المقدودة. لقد وضعت رأسى على صدرها سنين طويلة، ولم أشعر مرة بأن لديها أثداء كالنساء. أما ليلى فقد نما ثدياها فجأة، وامتلأ ثوبها، وتورد خداها بالغمازتين اللتين لم أشاهدهما قط في وجه الجدة. باتت ليلى كشجرة الفل التى تتجدد كل عام عند نافذة الجدة فتعنى بها وكأنها واحدة من بناتها فتخاطبها وهى تقطف الفلات لتوزعها على صبايا الدار ونساء العائلة المقيمات بعيداً. أحببت الشجرة، وكنت أخشى أن أمس زهرة منها فتصاب ليلى بسوء. كنت أشم رائحة الفل من بعد وأغرق فى أحاسيس لا حدود لها، كنت أواصل كتابة الرسائل إليها بانتظام، ولكن الرسائل لم تصلها أبداً. وكانت بلاطة من تلك التى خلخلها الزمن خزانة الأسرار، أرفعها لأخرج الصندوق الحديدى الصغير من تحتها فأودع رسائلى الواحدة تلو الأخرى، كما كنت أضع فيه مايخصنى من أسرار لم يعرفها أحد. وكانت البلاطة فى القبلية التى دفن فيها أولياء لايعرف لهم تاريخ محدد، ولكنهم كانوا حقاً من أجدادنا. وكانت قبورهم المتفاوتة

فى الحجم والارتفاع، يكللها قماش أخضر، جدد آخر مرة بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية، ثم لم تسمح الظروف بشراء قماش جديد، فكسا الغبار اللون الزاهى ليصبح كلون الزيتون اليابس. وتساقط التراب من بين أعمدة الخشب، فعلا الأرض بطبقة رقيقة تسجل سير الأقدام عليها عندما كنا نختبئ فى لعبنا هناك، أو كأنه يحفظ وقع خطواتى عليه عندما كبرت إذ أتوجه نحو البلاطة أرفعها لأخرج صندوق الأسرار أفتحه جالساً معه الوقت الطويل .

لقد خفت الضجة، وبات السكون مقيماً يحادث الأحجار المتآكلة بلغة الصمت التى حفظت مفرداتها. كان من المفترض أن يقوم واحد على الأقل من مهندسى العائلة بإسداء النصح من أجل ترميم ماهدم، ولكنهم رحلوا جميعاً عن الدار. ومع أن أبناء الجدة وأحفادها من أعمامنا، قاموا ببناء غرف جديدة لاستيعاب الزوجات والأطفال القادمين لهم ولأبنائهم، إلا أن القدم تسلل إلى تلك الغرف أيضاً، ودب العطب فى بعضها، أو أنها تحولت بعد رحيل الجميع إلى مخازن تكدس قطع الأثاث المهجور أو ذاك الذى فقد رونقه أو قيمته، والذى كانت كل عائلة من الأسر التى تهجر الدار تتركه وراءها. فكانت الجدة تحافظ عليه،

ولاتدع أحداً يمسه. كانت حريصة على أن تحفظ كل شيء، وهي التي أشرفت على نمو كل شيء وترعرعه في الأنصارية، فكانت على علم بكل شيء عاش أو مات أو أنه مازال باقياً بلا حراك يجلله الغبار. ولم تكن على ذلك بغافلة عما يحدث في الدار رغم اتساعها وتشعب مساكنها وأقبيتها وصهاريجها وسقائفها... حبي لليلى، غاب عن عيني الجدة وهوب. فكان حرصي السائد على كتم عواطفي، والظهور بعكس ما أخفي قد أبعد أية شبهة عني. كذلك لم أجرؤ على البوح بأمر حبي لأحد. كنت في الثالثة عشرة، عندما لامست ساقي ساقها في الفراش تحت سماء صيف سابق. وكانت في العاشرة فضحكت تقول بصوت مسموع :

«ينمو الشعر في ساقيك مبكراً»

فضحك الجميع وغرقت في خجلي، وتظاهرت بالنوم مغمضاً عيني على خوف من أن تفسر فعلتي بما لا أشتهي. ورغم هربي من مواجهة التعليقات الساخرة فقد قام عدد من أبناء وبنات عمومتي بشد الشعر الذي نما على ساقي، فأغالب الألم بالصمت. ويومذاك خفق قلبي بشدة لابنة العم ليلى. وكتبت بعد ذلك أول رسالة لها. استعرت الكثير من جملها وتعابيرها من

كتاب لجبران، ثم دفنت الرسالة فى صندوقى الذى قيض له أن يصبح وعاء الأحزان والتأملات .

كثيراً ما فكرت فى أن أبوح لأحد بسرى، للجدة وهوب فى أسوأ الاحتمالات. ولكن الجدة كانت سلكت معى، منذ صباى الأول، طريقاً سد على جميع المنافذ. كنت عندها رجلاً منذ يفاعتى، وكثيراً ما كانت تنادينى بالشيخ أحمد، وتحدثنى عن الأيام الخوالى، فأحس بأن ضعفى لن يلقى قبولاً، فلا أجد سوى صندوق الأسرار هو الوحيد الذى يغفر لى تلك العواطف .

سنين طويلة من التلذذ بإخفاء المحبة بعيداً عن أعين الفضول. ورغم أن ليلى كانت مؤهلة فى شهادتها الثانوية لدخول كلية الطب، إلا أنها اختارت الهندسة، وأعتقد أن هذا الأمر قد تم نتيجة لإعجابها بأبيها الذى يستحق الإعجاب حقاً، فضاعت على الفرصة فى لقاء يومى كان يمكن له أن يحدث فى كليتى، إلا أن الأمور سارت سيراً حسناً فى الأشهر الأخيرة كما كانت فى أيام الصبا، فقد كان لقاؤنا منتظماً فى الأعياد وأيام الجمع وفى كثير من الأيام أو فى مواسم الموت التى كان آخرها رحيل العمة عيشة .

راقبتها وهى تبكى بصمت وقد شحب لونها. كانت ليلى

تشترك مع نساء العائلة فى تزيين النعش بالورود والأزهار. لقد أصرت الجدة وهو أكثر من أية مرة مضت، على أن تخرج عروسها بما يليق بها من بهاء العذرية. وقد راقبت ليلى وهى تحرص على تثبيت الورود البيضاء بغطاء النعش بدقة صانع ماهر، فكانت الأبرع من دون الجميع والأكثر تماسكاً. كأنما ورثت عن الجدة دقتها المتناهية فى تجميل الموت وجعله أكثر واقعية. ويبدو أن هذا الأمر لم يخف عن الجدة وهوب، فاستدعتها فى نهاية اليوم الثالث وقالت بابتسامة نادرة ولكنها عذبة :

«كردان عيشة سيكون لك يوم زواجك يا ليلى».

ولا أعلم حتى الآن ذلك السر الذى جعل الجدة ترغب فى أن أكون الشاهد الوحيد على ذلك الميراث الذى تحسدها عليه كل بنات الأنصارية، لما كان عليه الكردان من جمال يخطف العيون بذهبه الوقور ولآلئه المبهجة، كما لا أعلم لم سبب لى ذلك الأمر أرقاً، وكأنه إشارة ذكية من الجدة، لم تشأ أن تفصح عنها، على أنها تفهم كل شىء يدور فى النفوس، وعلى أنها تفهم سر الحب الكامن فى قلبى كجوهرة مشعة يفضحها النور الذى لا ينقطع.

-٦-

كان الحنين إلى دراسة أخرى غير الطب يجتاحنى أحياناً كهبوب الرياح الشرقية فى ربيع متقلب. وقد فوجئت فى ذلك اليوم المشحون بالعاطفة نحو المجهول، بالجدة وهى تلبس جلبابها الكحلى الذى تزين صدره رسوم هندية أو صينية. كانت على الكرسى المطعم ببقايا الخزف وعرق اللؤلؤ، فى صدر القاعة الكبرى، تتأمل وحيدة صور أبنائها الذكور، وقد ذابت عيناها فى المساحات الملونة وتفاصيل الوجوه التى تنطق بالحنين إلى الأنصارية .

فؤجئت بها، وأنا أتسلل إلى هناك أفكر فى البحث عن كتاب بين أدراج ورفوف (المكتبية) الهائلة والتى تحتل واجهة كاملة. ولم أشأ أن أقطع عليها خلوتها فتواريت خلف خزانة متداعية. وقد بدا لى أنها تكثر التطلع إلى صورة العم مصطفى آخر الراحلين، وأول من نعم بحياة طويلة من الأبناء. كانت عائلته

الأكبر وأحفاده لايمكن لى تذكر أسمائهم بسهولة. وقد شاركتها عن بعد تأمل رقة الكهولة التى نضج بها اللون الترابى فى وجهه السمح.

مضى على فراقه أربع سنوات بفصولها، فغص حلقى بريق التذكر. منذ أيام مرت ذكراه السنوية، فلم يحتفل بها أحد من العائلة لانشغالهم جميعا بموت عيشة.

وقد خيل إلى أن الجدة فى حديثها إليه، إنما تكفر عن إهمال الدار لتلك الذكرى التى لم تنقطع الأسرة الكبيرة عن إحيائها بالنسبة له، أو بالنسبة لإخوته الذين قبضوا فى شبابهم. لقد كان إحياء الذكرى مفعماً بالحركة ومرحاً وتخالطه الدموع أحياناً، ولكنه يبقى من أيام الأنصارية التى لا تنسى، فقد كانت تلك الأيام كالأعياد، تبتدئ بالطقوس الدينية وتنتهى بالغناء والرقص. وكان وجه الجدة وهوب مقياسا لتلك التحولات التى تظهر عادة فى أيام الاحتفال والتذكر .

كانت الجدة وهوب تنادى على العم مصطفى بصوت رقيق :

«هل قابلتهم يا مصطفى؟ رأيتهم ورأوك، أليس كذلك؟ هل ترعاهم يا مصطفى محمد وعبد السلام وأحمد.. إخوتك؟ هم بخير لأنك معهم. ألم تقل لهم إننا بشوق إليهم. إننا لم ننساهم.

إننى أراهم دوماً، وهم معى».

ويصبح صوتها أكثر خشونة وهى تتابع :

«البارحة كنت مع أخيك أحمد. مازال شابا جميلا. يشبهنى قليلا. كلكم تشبهون وهوب. لكنك يا مصطفى أكثر وفاء من الجميع، فقد بقيت لى مدة أطول، وكنت أتصورها أطول وأطول».

بعد لحظات، خيل إلى أن صوتها بات نديا مبللا :

«حدث ما حدث. هل تألمت كثيرا يا صغيرى. كان وجهك يشع بالنور وأنا أحتضنك وأضمك إلى صدرى كما كنت أفعل، هل تذكر. أمر غريب، فقد كان جرحك لاينز بالدم بل بالعنبر والمسك. لقد سكرت برائحة العنبر والمسك»

ثم اختفى صوتها تماما، فما عدت أراها بعد أن اختفت عيناى وراء سحب الذكريات التى لم ينقطع تواردها وكأنها سحب حقيقة من غيوم تنذر بمطر غزير.

وحبست أنفاسى، حين اتجهت الجدة نحو الباب الذى لم يعد له زجاج. التصقت بخشب الخزانة التى طالما امتلأت بالفاكهة والفستق الحلبى واللوز والحلوى أيام الأفراح بزواج شاب من شباب الأنصارية، ثم تحولت إلى خزانة تحفظ فيها أوراق ولفائف لم يخطر لأحد أن ينقب فيها. والآن باتت عشا للفئران

والعناكب والغبار المتجمع ببطء شديد على كل زاوية من زواياها وعندما خرجت الجدة تدب على عصاها بثقة وقد عادت إلى وجهها صرامة الأحجار، لبثت ساكنا في موقعي أستجيب لغزو الصور المتعاقبة كجيش من النمل الناطق يدب على كل حجيرة من عقلي. ثم استقطب كرسى الجدة وهوب اهتمامى فسقط النمل ميتا. هو الكرسى الذى تحلق حوله الجميع، فى أيام الزواج والتهانى بمولود قادم أو بنجاح واحد من أفراد العائلة فى الدراسة، أو عندما يقدمون التعازى. وكانت الجدة صامدة لا يرف لها جفن. وفى ذلك اليوم رأيت أجفانها تتحرك بقلق ظل سرا بينى وبين نفسى .

عدت إلى (المكتبية) فكانت مشوشة مضطربة من رفها الأسفل إلى ذاك الذى يلامس السقف. ورغم أنى استخدمت كرسيا صعدت عليه، لكنى لم أستطع أن أصل إلى منتصف المكتبة، فبحثت بعينى فى النصف المستعصى ورددت متعبا. مخطوطات وكتباً قديمة، وبقايا الكتب المدرسية والجامعية التى رمى بها كل من انتهى من تعليمه. كانت المكتبية صورة الفوضى لحياة منظمة. فيها كل شىء، ولا تستطيع أن تعثر فيها على شىء. لقد كان بحثى فى ذلك اليوم منصبا على كتاب كنت فى

طفولتى قد رأيته، وسمعت عنه كثيرا فى أول دراستى الجامعية. كتاب «طبائع الاستبداد» للكواكبى، هو ما كنت أبحث عنه بعد أن طال الحديث عنه فى الآونة الأخيرة .

كان عبد الرحمن الكواكبى صديق جدى الكبير أحمد، وكان من معارف الجدة وهوب، وتعرفه العائلة آنذاك جارا لها فى السكن، وزائرا يتردد فى الأنصارية. قالت الجدة عنه أكثر من مرة، إنه ساحر الحديث، وكان يثنى على شراب القرفة الذى كثيرا ما قال عنه مبتسما إنه يساعد العقل على التحرر ورفض ماهو سيئ فى هذه الحياة .

لقد دفعنى الفضول إلى التعرف إليه من جديد، بعد أن أطل بمؤلفاته على أيامنا المشبعة بالقلق والفوضى. وكثيراً ما تفاخرت أمام زملائى فى الكلية قائلا : إنه كان صديق العائلة، وقد ذهب بى التباهى إلى ارتكاب خطأ فاحش إذ قلت إنى أعرفه شخصياً، وكان لى فى جهل الزملاء بتاريخ الشيخ الجليل أن أحدا لم يكشف لى عن كذبى، الذى أعتبره أبيض فى هذا الزمان .

لكنى لم أوفق فى العثور على الكتاب. حصدت الغبار الذى ملأ خياشيمى بالزمن الراكد. وبدوت لنفسى بعد بحث طويل بين

آلاف المجلدات والكتب، كمن خرج لتوه من صحراء قاحلة تهب عليها الرمال دون توقف.

كانت عناوين الكتب التى أمر عليها تثير بى الاهتمام أكثر من أن أستطيع التدقيق فيها. تاريخ وأخلاق وفقه وتشريع وأشعار لها علاقة بكل شيء. وقررت آنذاك أن أنتظر عطلة طويلة تعقب الامتحان، فأقوم بتنظيم كامل لكل تلك الثروة المتراكمة من الكتب، أصنفها وأجعلها قابلة للتناول لى ولمن يريد. ويبدو أنى كنت أفكر فى الجيل الذى سيلينا، فقد يجد تلك الكتب جاهزة للقراءة. ولم أعلم إلا بعد حين، أن تلك الفكرة كانت قد أوحت بها إلى الجدة وهوب ذات مرة، فظلت فى رأسى مشروعا لم يتحقق بعد لانهماكى فى دراسة الطب التى التهمت معظم أوقاتى .

هى التى قالت «ستكون طبيبا يا أحمد» فتضاعفت جهودى فى ليالى الدراسة؛ وتفوقت فى الشهادة الثانوية وكنت من أوائل المقبولين فى كلية الطب. وهى التى قالت : «يجب عليك أن تحافظ على الأحياء من الأنصارية فى صحة جيدة. أنت المسئول مع أعمامك وأخوالك من الأطباء عن صحتنا».

فكان للجدة وهوب ماتريد. كنت أحلم بدراسة حرة فى كلية

الآداب. وكنت أتمنى أن أصبح رحالة يجوب العالم ويكتب عن الناس فى كل مكان. راودتنى أفكار عن التشرد فى أحياء الدنيا والهجرة إلى قراها ومزارعها، ولكن أمر الجدة لا يرد. كذلك قالت لى أمى مرة، ولم تكرر الرجاء :

«قد أشفى على يديك لو أصبحت طبيبا»

كانت الدراسة العلمية فى الكلية قد شككتنى قليلا بما يدور حولى من أمور، كشموع التمنى والرجاء التى يشعلها الغرباء فى شباك قبلية الأولياء، وكالأحجبة التى أشاهدها معلقة فى صدور عدد من أفراد العائلة. ورغم ذلك فإن هذا الشك لم يمنعنى مرة من أن أجلس بقرب أمى مساء أقرأ على ساقيها كلاما يختلط فى الدعاء بالآيات القرآنية. وكانت الجدة وهوب تجلس أحيانا معنا تصغى بإجلال إلى تمتماتى التى كان بعضها أحيانا لايفهم، وتتطلع إلى من حين لآخر فتغمرنى بنظرات الإعجاب مما يجعلنى الأثير لديها، فأحس بنشوة لا تعادلها سوى نشوة الحب المختبئ فى قلبى أحفظه من أجل ليلى.

كانت ليلى فى صندوق الأسرار تتألق يوما بعد يوم. تتزايد صورها الشخصية، منذ أيام الطفولة وحتى أيام التفتح الجميل.

بت مـاهرا فى استـخـدام آلة التـصـوير من أجلهـا، ولا أضـيع فرصـة تمر دون أن أوجـه العدسـة نحـو وجـهـهـا أو يديهـا أو فى لعبها وهى تجرى وراء القطط أو تتسلق الشجرة بخفة الريشة. ولقد خيل إلى أحيانا أن ليلى فى واحدة من صورها هى وهوب نفسـهـا. لقـد ولدت للعائلة بنات كثـيرات، وفى كل واحـدة منهن كان شىء من الجدة، ولكن ليلى كانت الأكثر قربا منها. كما قد خيل إلى أن شبهى بجدى أحمد قد قربنى من ليلى، فهل يعاود الزمن دورته بمثل ذلك التشابه العجيب ؟

لايمكن لى أن أنسـاهـا يوم رقـصت منذ سنين فى حـفل زواج واحـد من أبناء العم وكـانت الأنصـارية تشـع بالأنوار، وانـتـشـر الطبـالون والزمـارون فى الحـوش يأكـلون ويملأون الدار بالفـرح، فتـراكض الصـبيـان خلف البنات، ويومـهـا رقـصت ليلى. تمايلت برقـة، وكـان ذراعـاهـا تتـحـركـان كشـعـاعين من فضـة، فمـا عـادت الأنوار تخطف الأبصـار، كانت الفـضـة تغطى كل شىء. وفـجـأة تغـيـر شىء. الأبصـار تحـولت نحـو الجدة وهوب. مـئات العـيون حطت كـالحـمـام على الجـدة وقـد رمت بعـصـاهـا جـانبـا وقـامت تخطو بجسدها الناحل وسط الجميع، لتشير بأصابعها التى لا يرد لها طلب، إلى التخت الموسيقى أن يعزف من جديد، بينما

يدها الأخرى تطلب منديلا فأمطرتها الأيدى مناديل لاحصر لها، فاختارت واحدا منها، وجعلت تتمايل على أنغام الموسيقى، وكأنها طيف تحمله العيون برموشها. يومها تمايلنا مع الجدة وهوب وهى ترقص كفارس فخور بنفسه. وماهى إلا فترة قصيرة مرت كالحلم حتى نادت على ليلى التى عادت من جديد إلى حلبة الرقص، فتنقلت العيون ما بين الشجرة والغصن، أما أنا فما عدت أرى إلا جسداً واحداً، حيث كان النور يشع منه حتى غطى على كل شيء عداه يتحرك فى الأنصارية .

- ٧ -

بعد أيام من الفرح الذى شارك فيه الأحفاد وأولاد الأحفاد، طرق الباب. كانت قد سمعت فى الداخل دقات على الخشب تصنعها قبضة قوية، كأن القادم لايعرف أن الجرس الكهربائى قد بات بديلاً للكتلة النحاسية التى كانت تضرب خشب الباب السميك فتسمع أبعد الناس فى الأنصارية. ثم انهالت (السقاطة) القديمة طرقا برتابة من يعرف أن الدار لاتخلو من أحد، فاستيقظت الجدة وهوب، وأصغت العمة عيشة باهتمام، ونادت على أمى ببطء غير مفهوم أن أفتح الباب، فهرعت بمنامتى التى كانت لواحد من أبناء عمى ذات يوم، فتعثرت بساقيها الطويلتين فيما أركض نحو الباب أحاول أن أستطلع القادم الذى لم يراع نوم الفجر فاستمر فى إيقاظ النائمين.

كان الطارق طويلا، ولكن التعب البادى على وجهه رغم غشاوة الظلام كان قد أحنى من ظهره الذى برز بالحقيبة كحدبة اصطناعية، فتأملته دون خوف، وتفصحت وجهه المختبئ وراء

لحية كثة لم تعرف الماء منذ زمن، فظهر لى وكأنه واحد من المتشردين الأجانب الذين يهجمون على المدينة فى كل مواسم السنة طلبا للفرجة والتجمل .

همهم بألفة، فرأيت عينيه تلمعان رغم الإرهاق الذى رسم خطوطا مغبرة عل وجهه، وكان يستند بكفه على الباب ومد بالأخرى إلى يداعب شعرى الذى كان قصيرا فاستسلمت له كالمسحور، وقال بلكنة غريبة :

«جندى صغير، هه؟»

فأجبت بصوت خفيض وقد استيقظت تماماً :

«طالب فتوة».

فردد وكأنه يستعيد كلمة غير معروفة لديه سابقا :

«فتوة! فتوة!»

ومد بساقه إلى الداخل فتراجعت قليلا وكأنه مقدر له أن يدخل الدار بحرية، تساءل بعد أن عبر الممر وبات فى الفناء يتأمله:

«ابن من أنت؟»

«أحمد بن أحمد»

ولم يمهلنى كى أكمل، بل مال على بقامته الطويلة التى خيل

إلى أنها لمارد، وقبلني من خدى وهو يقول :

«أحمد بن أحمد، بن أحمد»

ثم رفعني قليلا عن الأرض، ليحتضن جسدى الصغير، ويقبل وجنتى من جـــديد وهو يردد «يا ابن العم مــا أخف وزنك، ألا يطعمونك هنا جيدا؟»

وقد أحسست به يلهث مرهقا. بعد برهة تساءل بقلق حاول إخفاءه :

«أين الجدة وهوب؟»

فكان كمن يتساءل إن كانت الجدة ماتزال على قيد الحياة، فأحسست بالاستغراب ثم بالضيق وسألته بجدية لاتعنى سوى الاستنكار:

«ومن أنت؟»

فـرنت ضــحكتـه التى شـوش عليـها السـعـال فى حـوش الانصارية:

«أنا ابن عمك، عبد السلام والدى، شقيق جدك»

ثم هتف بمودة أسرتنى :

«أنا سلام. ألا تتذكرنى؟»

وكان اللقاء غريباً. أقعى سلام الذى طال غيابه عن الدار عند

قدمى جدته، يمسك بذيل ثوبها الطويل كطفل وجد أمه بعد غياب. كان سلام قد هاجر قبل مولدى بقليل فانقطعت أخباره، ولكن الجدة وهوب طالما ذكرته مؤكدة على أنه سيعود ذات يوم مهما طال الغياب. وآنذاك غفرت له تساؤله السابق عن حياة الجدة، كما أننى أحببته أكثر عندما تبين لى ساعتها أنه واحد من أعمام ليلى.

رأيت سلام بعد ذلك يضع ليلى فى حجره طويلا يدللها كطفلة صغيرة فتستسلم له. وكثيراً ما لمحت الحنين فى عينيه يقترب من بكاء عصى فيما يطوف في الدار، يجول فى كل زاوية. كان يغتنم فرصة خلو الفناء من الناس، فيركع عند القبور الثلاثة، وكأنه فقد ساكنيها لتوه، وعندما يحس بحركة ما تأتيه من خلفه، كان يقف على قدميه مرسلا لحنا غريبا من فمه، فيبدو غريباً عن الدار.

كانت الجدة وهوب قد أعطته غرفة من غرف الدار الجديدة، فشارك الأثاث القديم مقيما بهدوء كامل دون أن يحاول تغيير شيء فيها ويتجمع الصبيان والبنات عنده أبدا، يحدثهم عن رحلاته فى الشرق والغرب، فيسحرنا وكان لقدومه الفضل فى لقاء ليلى كل يوم، وأما حديثه عن العائلة فى أيامه السابقة

فكانت فرصة فى التعرف إلى خفايا كنت أجهلها .

وفى (القبلية) جلست معه طويلا عند أقدام الأضرحة نتحدث عن الماضى. وكخبير فى كل شىء كنت أستمع إليه بإصغاء عاشق مفتون. وإذ يشير إلى واحد من الأولياء يقول : «كان يصنع المعجزات جدنا هذا. من مئات السنين كان ينتقل عبر البلاد بخطوات واسعة هربا من ملاحقة السلطان له»

أفكر، فتتسع عيناىَ دهشة .

«كانوا يريدون منه أن يبارك أعمال السلطان الظالمة، ولكنه يفلت من بين أيديهم» وازداد غرقا فى بحر التعجب وهو يقول :

«هو من أهل الخطوة يا أحمد» .

وقلت له آنذاك :

«هل أردت أن تتنقل عبر بلاد العالم للسبب نفسه؟»

فتطلع إلى بحذر، ثم ما لبث أن ضمنى إلى صدره بحنان أب حقيقى :

«أردت أن أتعلم وأن أكسب»

ومن جديد كانت البراءة فى سؤالى :

«وهل تعلمت وكسبت؟»

فأجاب بعد صمت خلته لن ينتهى :

«تعلمت الكثير وكسبت الكثير»

ولم أفهم سر ما يقول إلا بعد فترة طويلة من حياته التى لم تدم بيننا طويلا. قالت الجدة وهوب وهى تزين نعشه بالورود الحمراء التى أصر قبل موته عليها دون غيرها، فاضطررنا إلى استكمال الورد الجورى القليل بأزهار شقائق النعمان قطفناها من القلعة التى تغطى سفحها الغربى لفترة طويلة من السنة:

«ألم أقل لكم إنه سيعود»

وتذكرت قوله لى ونحن نمشى،. بالقرب من خندق القلعة مشيرا إلى تلك الأزهار :

«شربت من دماء رجال كثيرين سقطوا وهم يحاولون أن يصعدوا القمة»

وتساءلت طويلا عن سر عودته، كما أرقنى سبب هجرته الطويلة، فأجابتنى الجدة وهوب بعد فترة بعيدة من رحيله :

«لابد له من أن يعود، كل الذين ذهبوا سيعودون يا شيخ أحمد»

عمل سلام بحارا، وعاش فترة فى الهند فتعلم الصبر وتحمل الآلام وأقام فى جزر بعيدة، وعنما أصيب بالزهرى فى ميناء فرنسى، حمل مرضه وعاد إلى الدار. كان موته نكسة أصابت

أحلامنا جميعا، ولكن الجدة وهوب سرعان مااستعادات خطوتها الواثقة وهي تتجول في أنحاء الدار التي لم تغادرها منذ زمن طويل. تساءلت مرة أن كان لها رغبة في أن تزور المقبرة في نصف شعبان، فقالت بهدوء يائس :

«ألا يزورني الأحبة دوما»

ورغم ذلك خرجت من الدار باتجاه المقابر البعيدة. قالت آنذاك: «فيه شيء من جدك الكبير. يحب الترحال، ولكنه استقر أخيراً في الدار»

وكنا نجلس إلى قبره المزخرف بنقوش دقيقة حملت مع حجارتها من قبر قديم لواحد من أفراد العائلة هدمته البلدية عند توسيع الشارع الموازي للمقبرة وعندما تحادثت مع ليلى عن عمها قالت ببرود أخفى حزنا عميقا :

«الحمد لله أننا لم نره معنا طويلا»

وقد أضيفت إلى صندوق أسراري مجموعة كبيرة لصور كثيرة لنساء من بلاد مختلفة، قال سلام إنه أحبهن وأحببنه، وإنني سأدرك ذات يوم عندما أكبر ما معنى أن يكون الإنسان محبا ومحبوبا من بشر يتكلمون لغات مختلفة. ورغم إقامته القصيرة بيننا فقد علمني جملا كثيرة من السنسكريتية

والصينية والفرنسية والسواحلية وغيرها، مما لا يغيب عن ذاكرتى أبداً. وإذ أسترجع تلك الجمل، أحس بسعادة خفية، وكأنها تمائم تحرك فى أعماقى رغبة مجنونة للانطلاق بعيدا عن هذه الدار، وعن المدينة أيضاً. ولكن صوت عصا الجدة وهوب على البلاط، ونظرات أمى المستضعفة إلى، وكبرياء ليلى المتمثل فى قامتها التى لا مثيل لها فى كل البلاد، قد دفن تلك الرغبة ودفع بها إلى الاختباء فى صندوق صدرى الذى كان لابد مماثلا فى الحجم لصندوق أسرارى القابع عند أقدام أضرحة الأولياء، والذى كان يتسع كلما دفعت إليه بأوراق جديدة، وكأنه رحم مطاطى يستجيب بنبل كبير لعواطفى وأفكارى وأحلامى التى تتزايد يوما بعد يوم .

- ٨ -

أنا والجدة وهوب والبركة. مئات المرات، مرورا بها وجلوسا عندها. السماء أحيانا تظهر واضحة على صفحتها الصافية، وتصبح مقروءة ككتاب مفتوح. نجلس عند البركة نتأمل فتتدفق الأحاديث. وعند ذاك الأصيل كانت فرصتي الوحيدة في الاستماع إلى الجدة وهوب تحدثني عن زواجها من الجد الأكبر الشيخ أحمد والد جدى أحمد. كليلى بدت متألقة تغزل عيناها صورا لايمكن للغة أن تعبر عنها .

كانت القلعة رغم قدمها، عروسا تتباعى بأسوارها العالية وسط ساحة هائلة تزنرها من كل جانب بالتراب الضارب إلى حمرة، لاتفصلها عن المدينة سوى بعض أبنية، كانت الانصارية واحدة منها، وكان سوق (المدينة) كشريان يمد الساحة بالناس والحركة .

عرف عن الأنصارية أنها وقف قديم، اختلف الناس فى معرفة تاريخه، ولكن العروس الصغيرة حددت له تاريخا بات

معروفا بعد ذلك، كان زواجها من الشيخ أحمد بداية لزمن جديد، فانتسبت الأنصارية للجدة وهوب التى احتلت منذ البداية غرفة كبيرة وليوانا تعمره نباتات الليلك وتحف به شجيرات الفل والياسمين والتمر حنة .

وكانت العربة التى حملت العروس إلى زوجها، قد أنهت دورتها السابعة حول القلعة، فتوجهت نحو الأنصارية التى تجمع أمام مدخلها الخارجى أهل الفرح يتوسطهم الشاب الجميل أحمد، وقد اعتمر طربوشه القصير وقبض بكفه القوية على الباكورة المحلب، وجعل ينتظر موكب العروس بقلق ارتسم على وجهه الواضح الملامح. كان رفاقه من الرجال الأصدقاء والأقارب، يهللون مكبرين، أما هو فكان يتصنع الصبر فيجمع إلى وقاره هيبة، لم تستطع أن تخفى شوقه الذى لوعه سنوات قبل أن يحصل على ابنة العم وهيبة، والتى بات اسمها منذ تلك الليلة وهوب، فجلست إلى قربه على الدكة الخشبية المزينة بالورود، تلك الدكة التى ستصبح على مر الأيام مضجعا للجد الكبير فى الليوان، ومن ثم الخشبة التى يغتسل عليها أموات العائلة .

وقادتنى من يدى إلى تلك القطعة الخشبية التى أثر عليها

الصابون فابيضت وزالت عنها صفة الخشب، وقالت لى بهدوء تقريرى :

«خشب ابن حلال لم يفن، لابد منه لهذه الدار».

فى الليلة الأولى، سهر العروسان إلى الصبح، كانت فترة الخجل قصيرة، ثم تجلت المحبة فبات الزوجان أليفين وكأن دهرا قد مر على لقائهما. غنى لها بصوته الشجى مواويل شرقاوية وقدودا حلبية كان قد تعلمها من شيخ فى تكية قرب القلعة، فرفت له بعيونها إعجابا وحياء. أطعمها من عسل النحل وقشر لها بيديه حبات الفستق، فأطعمته بأصابعها اللوزينج. وحكى لها عن مغامراته فى السفر، فأصغت لأحاديثه وكأنها آيات منزلات.

وفى الصباح الندى كأيام الجنة الموعودة، اجتمع أهل الفرح فى فناء الدار يزغردون ويملأون الأنصارية بالسعادة. وعلى إيقاع المولد الشريف والأناشيد الدينية أكلوا المامونية والشعيبيات، وقال آنذاك بصوته الذى ابتدأ قويا وظل حتى آخر لحظة من حياته .

«وهوب ستكون أم أحمد الصغير»

وهكذا كان بكره الأول جدى، موجودا قبل أن يولد .

منذ الأيام الأولى، كان على الصبية أن تحول الوقف القديم

إلى جنة تنمو فيها الأزهار والأشجار والعرائس. وكان عليها أن تبقي على الشموع مشتعلة فى قبلية الأولياء، وأن تشرف على الأقبية ممتلئة بالمؤن لأيام الشتاء أو لسنوات المجاعة الدورية. وكانت فى البداية هى التى تعجن وتخبز فى التنور الذى ما عاد له وجود الآن إلا من آثار تحمل سواد النار. ولكن الشيخ أحمد هاله أن يرى خشونة يديها فأحضر لها من يساعدها، فوجدت لها فرصة فى أن تشرف بنفسها على طعام الولائم التى لا تتوقف فى الأنصارية، تجمع عليها الأقارب والأصدقاء والغرباء والفقراء الذين كان يحلو لهم أن يطرقوا الباب فى أية لحظة ليسلموا على أهلها ومن ثم يطلبون الطعام وكأن لهم على أهل الدار منة .

لم يكن جدنا غنيا، ولكنه لم يكن فقيرا. كانت تجارته فى السوق تتأرجح ما بين رواج وكساد وفقا لأحوال البلاد، ولكن أمانته أملت على الجميع احترامه فنجح فى أعماله. كان كريما مبسوط اليد، ولم تكن الجدة لتقل عنه فى سخائه، إلا أنها فاقت نساء عصرها فى تدبير الأمور وفى خلق الأشياء من لا شيء. قشور البرتقال والرمان، تصبح بين يديها صبغة لتزيين الشعر أو للوقود أو لتحويلها إلى مراهم يمسح بها على القروح والجروح.

كذلك الأعشاب والنباتات الطفيلية التى تنمو فى تراب حدائق الدار، أصبحت بفضل ابتكارها أنواعا من الشراب اللذيذ يقدم لأهل الدار وزوارها، أو أنها تصلح للعلاج كأدوية اشتهرت الجدة بها فى كل أرجاء المدينة .

كانت تعمل بيديها على تجديد القماش الأخضر الذى يجلل الأضرحة. هى التى تخيطها وتلبسها التيجان الخشبية للأضرحة الخمسة. وهى التى صنعت لزوجها المسبحة الألفية من خشب الصندل الهندى، الذى عثرت على قطعة منه فى أحد الأضرحة، كى يسبح بها فى ليالى رمضان الطويلة، وقد أشرفت بنفسها على تجديد الليوان الداخلى وأشارت على المزخرفين بأفكار جديدة مازالت الأجيال المتعاقبة لأولئك الصناع تقلدها وتكررها فى بيوت المدينة ومساجدها ومدارسها. وقامت على بناء الغرفة تلو الأخرى لاستقبال العائلات الصغيرة، التى بدأها أحمد ابنها البكر بزواجه، والذى لم يطل كثيرا وانتهى بأرملة ورضيع كبر وتزوج وخلف بناتا وذكرا واحدا، كنته أنا .

ويوم وفاة الشيخ أحمد الكبير، كانت الجدة وهوب قد ألقت أوامرها على الجميع دون استثناء بعدم البكاء على زوجها الراحل والذى لم يكمل الأربعين. وقامت بنفسها بالوقوف على

الرجال وهم يعدون قبرين فى منتصف الفناء وعلى المربع المرتفع الذى غطته دالية تعطى عنبا بلا بذور، والذى ظل يستخدم للغناء والأناشيد الدينية ولجلوس التخت الشرقى عليه. وقالت الجدة وهوب آنذاك :

«سيبقى الشيخ أحمد معنا إلى أن أستقر بقربه»

وكان القبر الثانى معدا لها، ولكن الذى حدث أن والدها العجوز، أحضرت جثته إلى الانصارية لدفنه فيها. وبعد سنين قليلة لم يكن هناك من مجال على ذاك المربع المرتفع إلا لقبر ثالث وأخير كان من نصيب ابنها أحمد الذى قضى نحبه قبل أن يبلغ العشرين من عمره. فتساءلت ذات مرة مفكرة :

«ألم يبق لى مكان»

ثم ماعادت تتحدث عن قبر لها، كما أنها لم تعد تملك وقتا تفكر فيه بموتها. لم تلبس الأسود مرة واحدة، ولكن ظهرها كان ينحنى عقب رحيل أى فرد من أفراد أسرتها، إلا أنها كانت سرعان ماتستعيد قامتها المنتصبة باعتزاز بعد فترة، وكان اعتزازها يصل أوجه عند استقبال الأولاد من بطون أمهاتهم، من بناتها، أو بنات أولادها وبنات أولاد أولادها. كان وجهها يتهلل عادة بالبشر المضىء عندما يدوى بكاء طفل جديد قادم

إلى الحياة، لم تكن تعرف كيف تطلق الزغاريد، ولكنها وبإشارة منها كانت تحرك عاصفة الزغاريد من النساء فى الدار التى كانت تملأ الفضاء فترددها حيطان الأنصارية معلنة عن قدوم فرد جديد أو عن إقامة فرح يدخل تاريخ الأسرة الطويلة .

- ٩ -

ليلى . هى ليلى كما لم أرها منذ زمن، وكأنى أراها بعد فراق قرون. مع ليلى وجها لوجه وحيدين فى أرض الدار. كالغمامة غشت على عينى، فلم أعد أرى خرابا أو شقوقا فى الجدران، ولم تعد هناك أوراق متساقطة تغطى بلاد الفناء أو أعشاب يابسة تنذر بخطر الحريق. كنت أرى ليلى وحدها دون أى شىء آخر.

وقفت فى مركز الدار، وقد ضمت كتبها إلى صدرها تنظر إلى بحنان، فلم تلق منى سوى الاستسلام لتيارات العواطف المتضاربة فى داخلى. كنت أفكر فى صراخ «أحبك». كنت أفكر فى جبنى. أخيرا قالت ليلى بمرح :

«أين الحبيبة وهوب؟ نائمة»

كنت بعيدا عنها مسافة أربع بلاطات هائلة قيل إنها أخذت من السطح الذى يغطى سفح القلعة، ولكن الشوق المكبوت فى الصدر قربنى إليها، فما عاد للبلاط مسافة .

لم يحدث، منذ أن كبرنا، أن تقابلنا وحيدين هكذا. خريف متساقط على الدار، ولكن الدفء يتزايد لحظة فلحظة فتتسارع الأنفاس، ولمحت غصنا أخضر يفتق من بين حجارة قبر الجد الكبير أحمد. عندما دخلت ليلى الدار، كنت أرش الأزهار برذاذ الماء وقد تركت كتاب التشريح مع مجموعة من العظام على أرض الليوان. قالت وهي تقلب الكتاب : «لا أحب أن أكون طبيبة»

ولكنها أعقبت بعد برهة :

«ولكنى أحب أن أراك طبيبا»

وضحكت مقتربة منى تشد على ساعدى :

«سأطمئن علي صحتى وصحة العائلة كلها عندما تتخرج فى الكلية»

كنت مطرقا برأسى أقاوم الاختلاجات المتعاقبة. شممت فيها رائحة التمر حنة التى طالما ملأت ثياب الجدة وهوب. هتفت بضعف خجول :

«ستكونين مهندسة عظيمة»

فرنت ضحكتها فى أبهاء الدار وفى سمعى وفى الخيال الذى كان يسبقنى إلى المستقبل، ومضت فى طريقها إلى الداخل .

وهكذا عاد الخراب إلى الدار فظهرت شقوق الجدران واضحة. كان الوجوم يدهن كل شيء بلون رمادي بارد. كنت قد نسيت الماء يتدفق من الخرطوم حتى أغرق البنفسج الذى نما بريا فتساءلنا عمن زرعه فلم نلق جوابا. لقد قررت، لحظة رأيتها أمامى، أن أقول لها شيئا، لكنى لم أفعل. يا إلهى من أين جاءتنى وراثة ذلك الخجل اللعين ؟

وهكذا عدت إلى السقاية التى لم يكن لها من داع بعد ذلك الجفاف الذى أصاب حلقى. كان المساء يقترب ببطء، فأحسست بكل الغم الذى فى العالم يهجم على بلا رحمة. وشعرت وكأن سماء الدار تطبق على ويسود ظلام. وكان بإمكانى أن ألحق بها عند الجدة، ولكنى فضلت البقاء وحيدا أفكر بالحزن الجميل .

لقد فقدنا براءة الطفولة، وما عدت ألاحقها فى أرض الدار وفى الدهاليز ووراء القبور والأضرحة هل صارت غريبة، أم أننى خلقت الغربة بنفسى، ففقدت هى القدرة على التواصل القديم. كنت أزورهم فى المناسبات، وفى البداية نفرت من بيتهم الذى يطل على المدينة من الناحية الغربية لغربته عن الحى الذى بنيت فيه الأنصارية، ولكن ليلى زينته برائحة الزمن الذى ألفناه فأحببته. وكانت أمها قد أحسنت توزيع الأزهار بإتقان، وقد

نفذت كل توصيات الجدة فى اختيار أنواع الأزهار وألوانها، كذلك الشجيرات الصغيرة التى نقلت جزءا منها من الأنصارية. وكنت إذا مازرتهم بعد ذلك وجدت نفسى قريبا من كل شيء أنست إليه وأنس إلى، ولكن ذلك لم يدفعنى مرة إلى التعبير بشكل واضح وصريح عن عواطفى التى تتزايد يوما بعد يوم، ولم يكن أمامى من صديق سوى صندوق الأسرار الذى حكم عليه بالبقاء تحت البلاط العتيق .

ليلى دخلت. ليلى خرجت. وأنا فى نقطتى لم أتحرك. فوجئت بها تقول وداعا وهى تمرق من قربى كشهاب فكتمت نفساً كاد أن يفضحنى. ثم توقفت عند المدخل الخارجى وتطلعت بمودة تقول :

«لا تزورنا كثيرا فى هذه الأيام. سأقاطعك»

فلم تخرج من فمى المنفرج عن حيرة كلمة، كنت أقف كالملبوس، فأرسلت ضحكة قصيرة وخرجت مسرعة، فسادت الأنصارية ظلمة مغبرة دفعت بى إلى ضيق خانق .

لم أستطع أن أتابع الدراسة، كما أننى لم أستطع حفظ توازنى وأنا أدور كالصياح فى أرض الدار. وقفت أمام القبور ولكنى مالبثت أن عدت إلى الليوان أقلب كتابى، ثم تطلعت إلى

العظام البشرية التى لاتشبهنا أبداً، فكانت صفراء لا معنى لها، خفيفة لا أفكار فيها ولاطموح ولا عواطف. قلبت عظمة فخذ قد تكون لواحد من الأجداد، ثم وجدت نفسى أخرج من صمتى واستسلامى وأرمى بها عاليا إلى صدر الليوان، لترتطم بباب خزانة خشبية لم يسبق لأحد أن فكر فى الصعود إليها لفتحها. وإذ تقع العظمة على الأرض محدثة قرقعة رددتها الجدران الشاهقة، ومتفتتة إلى قطع متناثرة تتناهى إلى سمعى حركة لم آلفها من قبل. كان باب الخزانة العالية يفتح ببطء محدثا صوتا كعواء جرذ عجوز. حاولت أن أجمع بقايا العظام، ولكن أبصارى كانت تنشد لحظة فلحظة إلى حركة الباب التى تشبه انفراج حجر ثقيل عن كهف سحرى .

لم نكن نعرفى الخوف فى الأنصارية. الموت، الزمن، الأسرار لم تكن لتسبب خوفا لطفل أو امرأة من أهل الدار، ولكن رعشة خفيفة لمستنى فأحدثت تحفزاً.

كنت أنظر إلى الخزانة وأنا أقاوم تلك الرعشة التى تحولت إلى فضول، واستجمعت نفسى وأنا أتسلق السلم الذى أحضرته، لأطل على الجوف المظلم الذى كان يرسل برائحة هى ما بين المسك والغبار. حدقت متفحصا بالمشهد الذى بات محيرا

ومثيرا أمام عينى .

كبيرة كانت الخزانة تضرب فى عمق الحائط، وقد تتسع لرجلين جالسين، وأما الأرفف فيها فقد باتت سوداء وقد استقرت على احداها عمامة هائلة الحجم، بدت وكأنها لرأس عملاق. حاولت أن أحملها بين يدى أجرب مقاسها، ولكنها بدت كمظلة واسعة. كانت من القطيفة الحمراء يلفها قماش أبيض زال عنه بياضه فبدا كلون العظام التى ندرس عليها. حاولت أن أدس يدى بداخلها، فإذ بلفافة من القماش السميك الخشن تسقط منها على أرض الليوان. وكان فى الخزانة كتب وأوراق مهترئة، لم أستطع تقبيلها بعد أن تحولت إلى شيء أشبه بالرماد بين أصابعي. وكانت هناك فى العمق سبحات غريبة خرجت من عنق كيس، أمسكت بها فإذ بها تلمع رغم الظلمة التى باتت حقيقة فى الفضاء الذى أحاط بى من كل جانب .

كانت اللفافة بين يدى، أمرا يثير الفضول، فانتحيت بها فى ركن بعيد أفكر بها. كانت محكمة اللف بخيطان ثخينة، وقد غطاها طلاء شمعى يشعر بأهمية ما تحتويه، فكرت آنذاك بأن أحملها إلى الجدة وهوب، ولكن دافعا خفيا قادنى إلى الانفراد باللفافة. تذكرت تلك الحكايات التى طالما حكتها لنا الجدة عن

كنوز فتح الله لأعين بعض الناس عليها، ولكن إحساسى لم يكن لينقاد نحو كنز فى تلك اللفافة. وكنت قد عزمت على أن أفضها لوحدى لأتعرف إليها، لكن فكرة طارئة هجمت على فأشعرتنى بسعادة لاتعرف لها حدودا. كنت قد اتخذت قرارى فى أن أشرك ليلى فى سرى، فقد يكون ذلك بداية لإشراكها فى كل الأسرار التى ما عاد هذا الجسد الناحل بقادر على احتمالها وحيدا .

- ١٠ -

كان صوتها على الطرف الآخر من الهاتف، ثم كانت ضحكتها تدخل الأعماق عبر الأذن الملتصقة بخضوع. كان صوتى مرتجفا وأنا أدعوها إلى اللقاء غدا فى القبلية. قالت برقة:

«لقد فات عهد الصبا واللعب. تعال أنت إلينا»

كات مكالمتى تلك من مرات قليلات، واستغربت ليلى منى ذلك الإصرار على اللقاء، فقبلت دون اعتراض.

لقد مهدت الطريق لكى يكون كل شىء سريا ومحاطا بالكتمان. دخلت ليلى من باب القبلية المطل على الشارع وكأنها تتعرف إلى المكان لأول مرة فبدت الدهشة فى عينيها. أغلقت الباب الذى لم يسبق لأحد أن استخدمه منذ سنين طويلة، وخطت خطوتين وقفت بعدهما تتأملنى واقفا أمسك بأنفاسى. كانت هناك شمعتان جديدتان على المصطبة التى جلسنا عليها بين ضريحين. قالت لى بحذر:

«لا أحسب أن الأمرَ بمثل هذه الخطورة»

فانعكست ظلال الشمعتين على وجهها فرأيت فيه تاريخا لم تتح لى بعد فرصة لأعرفه كما خيل لى ذات مرة أنى قادر عليه. كنت أجهل ماسيحدث سرى الذى أجهله عند ليلى، ولكن فض اللفافة كان أمرا خطيرا لى. هتفت ليلى وقد باتت أنفاسها، تخالط أنفاسى:

«لا أفهم معنى لكل هذه السرية، ولكى أفهم أنك ما عدت كما كنت من قبل» هل أقول لها، أم أدفن السر خوف الفشل. لقد تبين لى أن فشلى يعادل الموت عندى، لذا أقنعت نفسى بأنه على ألا أخطو خطوة فى حياتى دون ثقة كاملة بأن النجاح سيكون حليفى. هتفت من جديد:

«ألا تقول لى؟»

ثم وشوشت بصوتها الذى يذيب جمود الخوف :

«ألن تقول لى؟»

ولمعت عيناى وأنا أخرج اللفافة من تحت الرداء الأخضر للضريح، لأضعها بين يديها بحرص شديد فتطلعت إلىّ ثم إلى تلك اللفافة، تراقب البريق فى وجهى .

همست بفرح :

«فى الخزانة العلوية من الليوان، كانت اللفافة. وجدتها وأقسمت ألا يراها أحد قبلك»

حملت ليلى اللفافة بحرص وقلبتها بين يديها، فاشتعلت وجنتاها بالحماسة وهى تقول :

«لا أستطيع أن أخمن ماتخفى»

ثم هتفت بشىء من العتب :

«كان على الجدة أن تكون الأولى فى الاطلاع عليها»

فتجاوزت حدودى للمرة للأولى فى حياتى وأنا أتمتم باستحياء:

«ألست فى مقامها ؟»

فابتسمت ثم كتمت ضحكة خرجت من عينيها بريقا يمسح أحزان العالم. وعملت أصابعنا مشتركة على فك الخيوط التى أحكمت على اللفافة. كهرباء ليلى كانت تسرى فى جسدى، ولكن توقى إلى معرفة السر تجاوز كل انفعال. قلت لها :

«أتراها أحجية.. أم أنها مداعبة؟»

فتمتمت منهمكة فى حلحلة عقدة مستعصية :

«لابد أن فيها شيئا يثير الحيرة»

وتحرر القماش السميك من الخيوط، فاشتركنا بابتسامة

واحدة انتقلت من وجهى إلى وجهها متناوبة كطير أبيض طالما رأيته فى أحلامى ينقل الرسائل بمنقاره ليعبر سماء المدينة بين شرقها وغربها، فينشر الطمأنينة. قالت ليلى وهى تتحسس قماش الضريح :

«قد نجد فيها شيئا عن تاريخ أجدادنا»

ثم انكشف لنا غطاء جديد من الجلد الحيوانى السميك، فضتها ليلى بحرص شديد، فإذ برقعة من جلد ناعم قد يكون لحيوان كالغزال. فانكشف لنا السر.

هتفت ليلى وكأنها وقعت على ينبوع من بخار ساخن، فرجعت برأسها إلى الوراء: «يا إلهى.. شىء لايصدق »

ثمة كتابة كانت على الجلد، وكأنها محفورة عليه. شىء كالحرق على الجلد كما هو معروف الآن فى الحرق على الخشب الذى برع فيه واحد من أبناء العم فى سنين سابقة .

بسطنا الجلد الناعم على الأرض، فغطى المسافة القائمة بينى وبين ليلى، فأمسكت هى من طرف، بينما جعلت أنا أفك الأسطر التى بدت كلماتها من غير نقط. قال ليلى :

«أما من تاريخ لتلك الكلمات؟»

فبحثنا عن التاريخ ولم نجد، وتهدجت ليلى وهى تستعجلنى القراءة:

«اقرأ .. فأنا لا أستطيع أن أقرأها معكوسة»

فوجدت نفسى مدفوعا لتقديم الرقعة إليها بحيث تستطيع هى أن تقرأ الكلمات التى بدت وكأنها رسالة كتبت منذ قديم الزمان، فترددت قليلا فى ترداد الجمل، وكأنها تجد صعوبة فى فهم ما تقرأ، ولكنها مالبثت أن جعلت تخرج الكلمات من فمها وكأنها هى التى كتبت تلك الرسالة .

«بسم الله القوى القاهر الرحمن الرحيم القادر على كل شىء»

«ولايخفى عليه شىء وبه المستعان ولاحول ولاقوة إلا به»

«هذه وصيتى والله أعلم/امرأة صلبة وهى من نسلى»

«لاتعرف الضعف أو الموت على الرغم من تكاثر الموت عليها»

«ثم يخرج من بطنها ناس كثيرون يضربون فى الأرض»

«ولكن إليها يعودون»

«أنثى حكيمة كالبحر المظلم ومشرقة كالشمس تسقط على بحر بلا موج»

«ماؤها يغسل الذنوب وقاعها يحفظ الأسرار»

يحرك أمواجها إيمان بأنها موجودة لكل الأوقات»

«ووصيتى فى أن يحبها أبنائى الذين هم أبناؤها»

«وحبكم لها يجدد ذكرى»

«أحبوها تحبكم تحبونني فأمنحكم بركتى»

«لاخوف على المسىء لأن صدرها رحب»

«ولكن الأخيار هم الذين يخلصون فى سعيهم إلى كسب الرضى منها»

«تعلمكم مايجب أن تكونوا عليه»

«وإذا ما اغتنى أحدكم فليذكر أبناءها فالمال لها»

«ويغترب مسافر منكم فلييمم وجهه أبدا شطرها»

«حيث يكون»

«ومن قسى على أهله فليذكر رحمتها عليه مرات»

«عطفها بلسم وغضبها علقم»

«وليزن واحدكم عمله بعطائها فيلقى أمامه تقصيره»

«وقد يمر حين من الدهر تصبح فيه من دون الناس جميعا»

«الأم والأب والأخ والصديق»

«من خرج عن وصيتى تاه»

«وأنتم بدونها كالإبل فى صحراء لا أمل للماء فيها»

«ولاعشب يرد الجوع ولا نسمة حنون تدثر الجسد المقرور»

«هي نجمة في سمائكم فلا تضلوها»

«والله العزيز يرعاكم في بعدكم عنها إذا ما كان قسرا»

«وفي قربكم إليها تحببا كان أم قدرا»

«وهو على كل شيء قدير ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم»

للمرة الثالثة بعد ليلى كنت أقرأ الرسالة، وللمرة الأولى كنت أتطلع إليها مستطلعاً رأيها فإذا هي تطرق برأسها غارقة في تأمل يشبه تلك الحالة التي تمر بها الجدة إذا ما استجد على الدار وأبنائها أمر طارئ.

«فهمت ولم أفهم»

فتطلعت إلى ليلى، فرأيت آثار سنين متراكمة على جبينها كأعشاب الحكمة. تأملتني كغريبة تراني للمرة الأولى، ثم سرعان ما انقلب التأمل في عينيها إلى حزن يتقد بالتساؤل :

«لماذا .. لماذا»

من أي عصر أتتنا الرسالة؟ ولم اختارتني بعد قرون من الاختباء؟ ولم اخترت ليلى لتشاركني ذلك الكشف الذي لم أستطع أن أحدد موقفي منه، فقد كان التردد يتملكني كلما

عاودت قراءته. هتفت ليلى من جديد :

«لماذا أنا .. لماذا حملتنى عبء هذه الرسالة؟ لماذا أحمل أنا مثل هذا السر؟»

وكانت كفها تتحرك على البلاط بعصبية هادئة

«إنى لا أفهم»

فأجابتنى وهى تمسح غبار البلاط ببطن كفها لتتأمله بعد ذلك بكآبة:

«لقد فهمت.. كذلك هذا الغبار أفهم عنه الكثير»

فلم أجهد نفسى لأحلل كلماتها المتوترة. كنت أستجمع شجاعتى لأضع يدى على كفها، فإذ بها تنتصب واقفة، لمست شعرى بمسحة عابرة من رؤوس أصابعها ثم أفلتت هاربة من الباب الذى دخلت منه .

مر على زمن طويل قبل أن ألحق بها، إلا أننى عندما فعلت لم أر فى الزقاق سوى الفراغ يتسلق أحجار الجدران العتيقة... ورأيتها فى كل حجرة تسد على النوافذ.. حجارة.. حجارة .. كل المدينة من الحجارة الباقية، أما الناس فقد ذهبوا ..

* * *

وهكذا تحول الحزام المحيط بالقلعة إلى حلقة متصلة من المبانى الحديثة الملساء لا يميزها عن البللور سوى عتمتها، وقد انتصب واحد من تلك المخلوقات الخرساء أمام الأنصارية فحجب جزءا منها عن القلعة، إلا أن المأذنة العالية كانت ماتزال تطل على كل نقطة من المدينة المتوسعة فى كل اتجاه. ولكن الجدة وهوب تقول بين حين وآخر :

«ما عدنا نسمع صوت المؤذن من جامع القلعة»

وقد كان لها على مايبدو فى الماضى رأى فى اختيار المؤذن الذى عليه أن يكون جيد الأداء حلو الصوت. وكانت تنتظر إقامته للصلوات الخمس لتكون لها ميقاتا لكثير من أعمالها وتصرفاتها. فأذان العصر مثلا كان موعداً لسقاية الأشجار أو إطعام أطفال العائلة أو الزوار، وأذان الفجر كان بداية لجولة يومية تقوم بها تتفقد خلالها الدار، وكانت عيناها اللامتعان تجوسان فى الأمكنة الخفية والظاهرة. وذات مرة عثرت فى

تجوالها المبكر على رجل غريب كان يختبئ فى سقيفة قرب مدخل الدار حيث تخزن بعض المؤن السريعة التداول، فذعر الرجل وحاول الهرب، إلا إنها مالبثت أن هتفت به آمرة أن يتوقف فتوقف خائفا، لوحت فى وجهه بالعصا تقول :

«أما عاد هناك للرجولة زمن حتى تهرب أيها المتلصص»

فطأطأ الرجل رأسه ولم يتحرك من مكانه. اقتربت منه الجدة بشجاعة وغضب وهى تقلب وجهه بكفها وتمتمت :

«كأنك مصاب بفقر فى الدم. هل هو الخوف أم هو الجوع؟»

آنذاك انكب الرجل على يدها يحاول تقبيلها فسحبتها تستغفر الله، فهى لم تجب تلك العادة ولم تشجع أحدا من أبنائها أو أحفادها على فعلتها إلا إذا كانت محبة. قال الرجل بصوت باك:

«من أجل الأطفال جئت سارقا أستحق العقاب يا سيدة الأنصارية»

فنظرت إليه مليا، وكأنما تحاول أن تتبين صدق قوله، ثم ملأت كيسا من الحبوب والبقول، وحذرته من أن يكون لصا فى المرة القادمة، وهو إذا أحس بالحاجة فعليه بالعمل الشريف، أو بطلب الطعام عن طريق الباب فيكون له أبداً وفى أى وقت يشاء.

وقالت لنا بعد ذلك :

«يسرقون لأنهم جائعون، وكما يقول المثل الجوع كافر»

وبات تفكيري في الرسالة أو في الوصية التي كتبت منذ القديم، أمرا ملازما لي في كل حركة. وكنت قد أطلت النظر في وجه الجدة وهوب تستلقي في نومها الذي لم يكن عميقا في يوم من الأيام، فتتبدل الصور واحدة تلي الأخرى، وصورة تختلف عن غيرها. ولكن صور ليلى العديدة كانت تظهر من خلال صفاء وجه الجدة وهي تتنفس بارتياح، وكأنما العالم من حولها راض عنها أو أنها هي التي ترضى عنه. أسمع صوت أنفاسها فأثق بالعالم وبأن الزمن ليس له نهاية محتومة. شهيق ناعم وزفير أرق، ليل نهار، بداية لا نهاية لها ونهاية هي البداية. وجه الحياة، وجه الجدة وهوب، فكانت السعادة. ثم تساءلت :

«لم هربت ليلى؟»

ثم حسبت:

«لم تشأ أن تفسح لي مجالا.. أو أن تعطيني فرصة لأعبر عما يدور في أعماقي المجنونة من أحاسيس رائعة»

ثم أيقنت :

«أحب ليلى، ولا أريد أن أعرف شيئا عن عواطفها نحوي»

وتساءلت بينى وبين نفسى وأنا أدخن واحدة من السجائر القليلة التى دخنتها فى حياتى :

«من المقصود بالوصية فى الرسالة، أهى الجدة وهوب.. أم أنها»

. ولم أجرؤ على التفكير فى اسم آخر .

لقد دخلت الوصية صندوق الأسرار، فلم تخرج معرفتها عنى وعن ليلى. وظلت حبيسة الصندوق الحديدى إلى حين. كان ذلك الصندوق الذى عثرت عليه فى طفولتى فى القبو، يضم أوراقا منسية، محا كلماتها القدم فمزقتها، وعندما بلغت سن الرشد فكرت طويلا بفعلتى تلك، وهأنذا بعد أن عثرت على الوصية ألوم نفسى على الخطأ الذى ارتكبته بتمزيق أوراق قديمة كان يمكن لها أن تكون ذات قيمة .

اتخذت قرارى بأن أودع الرق الجلدى المكتوب صندوقى الخاص، ولكن الشيء الذى لم أستطع أن أتخذ قرارا حاسما بشأنه، هو ذلك الحب المجنون الذى أن يترعرع فى تربتى هدوءا كالأعشاب الليلية نفاجأ بها فى الصباح بعد أن كانت غائبة. وباتت حجارة حائط القبلية، لوحة ترتسم عليه صورة ليلى تارة وصورة الجدة تارة أخرى، وكأن التاريخ الساكن فى القبلية له

وجهان، يطل على واحد بالطمأنينة وآخر بقلق لايتوقف .

وفاجأتنى أمى ذات مرة وهى تقول لى بصوتها الضعيف :

«لو كنت سليمة يا ولدى، لذهبت بك إلى بلاد أخرى تتعلم فيها وتصبح أكثر حرية»

فتساءلت آنذاك ببراءة :

«أولا أتعلم هنا.. أولا أعيش حريتى؟»

فتقول شبه مغمضة :

«مرضى يقيدك، والبيت قديم، والجدة تدير كل شىء هنا كما تشاء»

فلم أعلق على كلامها بشىء .

ابتدأ مرض أمى بعد مصرع والدى مباشرة، أصيبت بالحمى. قال لها الأطباء إن الشلل غير عادى أو مألوف، ولكنه حدث رغم كل شىء. وفى البداية كان أهلها يقومون بواجب الزيارة، ثم انتهت المرحلة إلى نسيان، أما الجدة وهوب فلم تنقطع لحظة عن مساعدتها وخدمتها. وكثيرا ما كان الخجل من الجدة وهوب يظهر فى عينيها حيرة، إلا أن الضيق والتبرم لم يختف من حياتها التى صارت إلى استسلام كامل لما يدور حولها. وعندما كنت أجلس بقربها أواسيها، كانت تذهب بعينيها

نحو البعيد، فكأن أحلام حياتها القصيرة السابقة باتت عزاء أو نقمة، فتحمل نظراتها أحيانا ابتسامات أو أحزانا تظهر وكأن بياضا يغطى البؤبؤين. كنت أتمنى أن أشارك أمى سر حبى، ولكنى سرعان ما أتذكر بأنها ليست من نسل الجدة وهوب، فأتوقف خوفا من كلمة تجرح جنونى الجميل .

كانت العلاقة التى قامت بين الجدة وأمى، شبيهة بتلك التى بينها وبين النساء الغريبات عن العائلة فأصبحن منها مع الزمن، وإن كانت الجدة وهوب قد خصت أمى بحنان يعوض عن عجزها الذى ألزمها الفراش سنين طويلة. كان للجدة الرأى الأخير والأول فى اختيار زوجات أبنائها وأبناء أبنائها، وما كان لأحد أن يتبرم أو يشكو من ذلك الاختيار، وعندما يشذ أحد تكون آنذاك الندامة، وقد تكون الجدة لم تلعب دور الخاطبة، ولكنها كانت تلعب دوما دور الموصية فيستجيب لها الرجال. وفى البداية تدخل الغريبة أرض الدار، يداخلها التخوف من سلطة الجدة التى لا يغيب لها ظل، وفى قولها الفصل، وبعد حين، أو سنين، يكون الاحترام فالحب، قلة هن اللواتى خرجن على طاعة الجدة وهوب، فكانت النتائج سيئة، طلاقا أو هربا كما حدث مع تلك الفرنسية الشقراء التى تزوجها واحد من الأحفاد، فلم تطق

الحياة وسط قبيلة تدير شؤونها امرأة صلبة، فهربت. ولولا حكمة الجدة وهوب، لكان الرجل لحق بها، إلا أن سحر الدار كان يطغى حتى على أولئك الذين خرجوا منها إلى أحياء حديثة وبيوت جديدة، فكانوا لاينقطعون عن التردد إلى الدار، وكان لابد لأطفالهم من أن يربوا كالدجاج الطليق فى الحوش، وأن يألفوا القبور والأضرحة والأشجار والمطابخ المتعددة، التى بردت نارها مع تزايد الهجرة، إلى أن جاء وقت لم يعد فيه سوى مطبخ واحد صغير كانت الجدة رغم المائة سنة هى التى تنفخ النار فى أوصاله، فتخرج رائحة الطعام شهية تجتذب أبناء الدار والغرباء على حد سواء .

كانت أمى رغم عجزها تساعد فى أعمال الطعام والخياطة أحيانا. ولم أر الجدة مرة تعامل أمى ككسيحة» إلا أنها لم تخف عطفها المتزايد عليها مع الأيام. ذات مرت اكتشفت أن أمى بدأت تأخذ بعضا من ملامح الجدة، وبخاصة فى نبرة الصوت ولون البشرة واستدارة الوجه، فتزايد حبى لها، واشتد اهتمامى بدراسة الطب الذى كان يخيل إلى أنها ستكون مفتاحا لعودة أمى إلى الحركة المرحة، ولإطالة عمر الجدة التى لم تشك مرة من مرض أو ألم، كما أن خيالى لم يقترب لحظة من تخيل شىء اسمه موت الجدة وهوب .

- ١٢ -

ذلك اليوم كان غريبا. الطبيعة نفسها كانت غير عادية، فالصحو صارم ولكنه لين على الأجساد، واقتادتنى الجدة وهوب من ذراعى إلى غرفة فى الفناء الداخلى، وفتحت الباب الذى لم يفتح منذ سنين، وأشارت إلى سرير حديدى رتب وكأنه يستعد لاستقبال زائر، وقالت لى :

«هنا سيقيم أحمد»

وتصورت أنها تعنى بقولها نقلى إلى غرفة جديدة. إلا أنها استدركت بقولها:

«هنا سيقيم أحمد، ألا تذكره؟ واحد من أحفاد عمك مصطفى»

ثم همهمت بكلمات، استطعت أن أميز شيئا منها

«أقام طويلا فى المستشفى»

ولم تتركنى لأتساءل، فأجابت من تلقاء نفسها :

«لقد طال بعاده هنا، وآن أوان العودة».

كان أحمد قد أقام، كما عرفت بعد ذلك، لفترة فى مشفى للأمراض العصبية. وقد كلفت بإحضاره فى ذلك اليوم مع عمه عبد الكريم الذى كان من أبناء العم مصطفى، ولم أتصور أن ذلك القرار الذى اتخذته الجدة سيكون علامة أو لحظة تغير فى حياتى، ولم أفهم السر فى أن يقيم مجنون معنا، أما كان يكفينا الضيق المادى الذى كان يضيق علينا يوما بعد يوم. إلا أن رغبة الجدة لا ترد، فذهبت مع العم عبد الكريم، الذى كان وزيرا ثم تفرغ لأعماله فى المحاماة، إلى المشفى الذى بنى قديما فى ضاحية بعيدة فبات الآن على حدود المدينة .

بدا أحمد أكبر منى بقليل، وقد نمت لحيته الخفيفة تبرز عمق عينيه الذكيتين. أذكر أنه غادرنا منذ سنين إلى مشفى، ليأس الأطباء من رعايته، وبعد أن ازدادت حدة تصرفاته الغريبة، وقد قالت الجدة وهوب :

«رأيت فى الحلم جدك الكبير، يقول لى لا تتركى أحدا من أبنائنا بين أيدى الغرباء»

وبينما العم عبد الكريم الذى تعلم الصمت منذ أن ترك الحياة السياسية، يقود السيارة بنا باتجاه الغرب، كنت أتصور الأيام

القادمة مع شاب فقد عقله، إلا أن ثقتي بالجدة جعلتني أفكر بما يمكن لي أن أقدمه له من مساعدة.

واستطاع العم عبد الكريم، بصداقاته الواسعة، أن يخرج أحمد الذى لم يثبت شفاؤه بعد فى السجلات من المكان الذى تثير رؤية أهله الشفقة على الإنسان. تذكرت، وأنا أراقب أولئك الرجال اليائسين فى خضوعهم لصراخ الممرضين، حديث الجدة ذات مرة .

«كانت الأنصارية ذات يوم من قديم الزمان، مصحا للمرضى من الذين فقدوا عقولهم. كان الظلم يابنى يسبب الجنون، فكانت الأنصارية ملاذا لهم»

وقد نظر إلينا أحمد بريبة، ولكنه مالبث أن استسلم لقبلاتنا، ومشى بيننا مستسلما. وقد بدا كأنه تعرف إلى عمه منذ النظرة الأولى، فنظر إليه بامتنان لا يمكن أن يكون إلا لعاقل. وقد تفحصنى لبرهة قصيرة ثم بادلنى الابتسامة الحزينة بضحكة انتشرت فى وجهه بشرا. وكنت قد أحضرت له ملابس جديدة ارتداها بفرح، ثم أمسك بكفى وضغطها برفق، وعلمت منذ البداية أنه لايحب الكلام فجاريته فى صمته .

واستقبلتنا الجدة عند المدخل، وكأنها ضبطت وقفتها مع زمن

حضورنا. أخذت أحمد بين أحضانها، وقبلته من رأسه، فمال بقامته المديدة منحنيا ليقبل بطن كفها، وكأنه خارج لتوه من مدرسة للبروتوكول، فأعجبت به وعجبت لأمر بقائه تلك المدة الطويلة بين المجانين. هتفت الجدة بفرح قيدته مشاعر مضطربة:

«أهلا بك يا أحمد، فالأنصارية اشتاقت لك»

وكان يوما طيبا. جلسنا نحن الثلاثة في غرفته التي زينتها أصص النباتات الخضراء .

«أحمد يحب البنات»

هكذا قالت الجدية، ثم أضافت تتوجه بالكلام إلى :

«وابن عمك يحب القراءة، وعليك أن تمده بالكتب»

وقالت بعد فترة :

«يجب عليك أن تساعده لدخول امتحان البكالوريا»

فسلمت بأوامرها دون أى تعليق. كنت سعيداً، وما من مخاوف تجاهه قد بقيت لدى .

وبعد أيام ظهرت لي وسامته. كان وديعاً، وابتدأ في تجاذبه أطراف الحوار القصير معي. وبات يسأل عن أفراد الأسرة واحداً واحداً يستذكرهم دونً استثناء لأحد. ولما علم بموت العمة عائشة، دمعت عيناه، ولم يعلق على موتها بكلمة، إلا أنه

قال بعد حين :

«مسكينة، عاشت يتيمة، ولدت يوم مات جدنا الكبير، ولم تعرف الحب الحقيقى»

لابد إذن من أن نتحدث عن الحب. قلت له :

«ماهو الحب الحقيقى؟»

فإذ به موسوعة في الحب. كأن تجارب ألف محب عاشت فى أعماقه فاختمرت صمتاً لايشى بشىء، ولكنه ينضح عذوبة عندما يستنفر للحديث عن تلك الأعماق. يسألنى مرة وهو يتمدد بسعادة على سريره الحديدى :

«ألم تعرف الحب يا ابن العم؟»

لكنه استدرك بعد لحظات :

«لابد أنك تعرفه، وتحتفظ بسرك فى أعماقك. عيناك تقولان. لذا أرى عينيك نبيلتين يا ابن العم» .

وبات أحمد أعز الأصدقاء. أحببته، ولم أطق فراقه. كنت أدرس معه بعد أن استعاد رغبته فى إعادة البكالوريا التى كان قد خسر جولته الأولى معها. كنا نقضى معظم الأوقات معاً،وكان قد رفض أن يقابل فى البداية أيا من الأهل والأقارب، فاحترمت الجدة وهوب رغبته وكأنه بات الطفل المدلل، أو أن تلك

المحبة لم تثر غيرتى بل زادتْنى فى دفع الجدة إلى تدليله أكثر وأكثر. كان رائعاً، إذ يتكلم عن الحب، كنت أتخيله وكأننى فى حالة من حالات شجاعة العاشقين فى القرون الخالية .

كان المشفى على خطأ إذن فى احتفاظه بأحمد، فقد مرت أيام دون أن تظهر عليه أية علامة أو تبدو عليه بوادر أمر غير طبيعى، بل بات هو نفسه يحدثنى عن حقيقة ما يجرى فى ذلك المشفى الذى قد يقضى على البقية الباقية من عقل رجل سليم. حدثنى عن أبرياء دخلوا دون إرادة منهم، وعن مجانين يمكن لهم أن يشفوا، عن رجال يتكلمون فى السياسة والعظمة والنساء، إلا أنه لم يشر مرة إلى حالته، ولكن الأسى كان يومض خاطفاً فى عينيه عندما أسأله عن حاله فى أيام المشفى. وذات مرة هتف بغضب مكبوت :

«كنت قد قررت أن أكون الناجح الأول فى الامتحانات العامة، ولكنهم قتلونا فجأة»

واحتدت عيناه بلمعان لم أعرفه من قبل، فدخل الخوف قلبى، إلا أن بحيرة وجهه سرعان ماصفت بعد إضراب، فلم أعر ذلك الأمر اهتماماً بعد ذلك.

همست الجدة وهوب آنذاك :

«أحب صبية. كانت جميلة. ولكنْ أيكفى الجمال ياولدى»

وقالت بحرص كبير :

«كانت سيئة، ابنة سوء، فأبعدته عنها، وتشاء الظروف أن يقتل جده مصطفى، فيصرخ أحمد مذعوراً، ويظل يصرخ..»

وتغلبت الجدة على أمرها حين يتخذ قرار جماعى بإدخال أحمد إلى المشفى لعلاجه. قالت الجدة وهوب :

«لم أشأ أن أرفض لهم طلباً اتفقوا جميعاً عليه. كنت أعلم أنه سليم العقل، ولكن مرض عيشه أضعفنى»

وهزت بعصاها ملوحة فى الهواء

«أما الآن، فكما ترى، أحمد يجب أن يعود إلى سيرته الأولى، فهو من أبنائى الأذكياء»

ثم محدقة بى متفحصة أثر كلامها بى

«بل لأعترف بأنه أذكى الأذكياء»

فهززت لها برأسى موافقاً، وليس هناك من غيرة تداخل نفسى. لقد تذكرت كل شىء عن أحمد .

كنا نعود دوماً إلى سيرة الحب التى كنت أجر أحمد إليها بحذق تعلمته من التشريح فى الجامعة. وكان يتألق عندما يتحدث عن الحب. لقد فكرت طويلاً، وأنا هناك وسط مستنقع

القسوة التى يخترعها المرضون دون عناء، وأنا أتأمل سرقتهم لدواء المرضى وطعامهم، فكرت بكم، بالدار، بالدالية وتلك الأضرحة التى لم تبارح خيالى. وذات مرة أغمضت وأنا أتوجه بكليتى نحو الجدة أدعوها أن تنقذنى، ففعلت .

وقال أحمد بصوت عميق :

«أمنا وهوب، ألا تشبه القلعة؟»

فلمح التفكير فى عينى مترددا ، قال بثقة:

«قديمة وجديدة، هى القلعة. ولاتعرف سوى أن تظلل أبناءها . تكبر، وتبقى كما هى» وتطلع إلى آنذاك بنظرة لاتنسى :

«ألا تعانقنا ، وكأنه كان اللقاء الأول. تمتم بكلمات غير مفهومة، فهمتها هكذا :

«بالحب نقبل مرارة هذه الحياة».

* * *

- ١٣ -

كـان مـصـرع العـم مـصـطفى صـاعـقـا. دخل فى ذلك اليـوم مـحـمـولا على أكتـاف الرجـال من أهل السـوق القريب، ولحـيتـه البيـضـاء قد تلوثت بالدمـاء فباتت حمـراء من منتصـفـهـا، وتدلت كفه التى ظلت تحمل آثار الحناء زمنا طويلا منذ أيام مرضـه فى شبـابه الأول. كانت على وجـهه آثار الامتعـاض، وكـأنما أراد أن يسجل اعتراضا على من تسبب فى وقف الحياة فى جسده .

كـان العم مـصطفى الوحـيد من بين الذكور الذين أنجـبتـهم الجدة، قد تجاوز سن الثلاثين دون أن يصيبه مكروه، كإخوته الثلاثة الآخرين. فكان وجوده على قيد الحياة سببا فى تفاؤل الجـدة وهوب لفـتـرة طويلة من عـمـر الأنصـارية. وبعد قليل من بلوغـه السـتين يأتى إلى الدار التى رفض أن يتـركـهـا كـمـا فـعل أولاده، فبـقى مـلازمـا أمـه كطفل صـغيـر، يقبل يديهـا وكـتفـيـهـا صباحـاً ومـسـاء، ويطلب أن تمسح على رأسه قبل أن يغادر إلى السوق بماء الزهور ويقول :

«لايحمينى من العين سوى هذه الرائحة»

وكانت الجدة هى التى تصنع ماء الزهر وماء الورد فى كل عام، متفائلة بالزجاجات الألفية الزرقاء تصطف على رف خاص فى القبو.

وعندما جاء محمولا، طلبت الجدة إلى الغرباء أن يضعوه برفق على أريكة فى صدر الليوان، وظلت ساعات طويلة تتأمله، وقد أمرت الجميع أن ينفضوا عنها ويتركوها لحبيبها الجميل. مسحت الدم برفق عن لحيته وفمه، ونزعت عنه قنبازه الملوث، ثم أزالت بخرقة بماء الزهر آثار الدم المتجلط عن صدره، وجعلت ترتب له شعره بأصابعها وكأنها تدلل طفلا نائما، وما هى إلا لحظات حتى جعلت تدندن بلحن طالما تردد فى الأنصارية قبل أن ينام الأطفال .

كانت زوجته قد ماتت قبله بسنوات قليلة، فعرف الحزن العميق بهدوء، ورفض أن يعيش مع أحد من أبنائه أو بناته، وفضل أن يبقى لأمه يرعاها وترعاه. وفى اليوم التالى، وبعد مراسم الدفن جلست الجدة وهوب على كرسيها المصفد تصغى بجلد غريب إلى أهل السوق وهم يصفون لها الحادثة .

دخل شاب صغير إلى سوق القماش، حيث دكانة العم

مصطفى. كان متوترا كنمر متوثب وصاح فى أهل السوق من تجار ومارة بأن يتفرقوا أو أن تقفل الدكاكين فقد أعلن الإضراب العام فى المدينة، واستجاب عدد من أهل السوق لنداء الشاب المدجج بالقنابل والبندقية السريعة الطلقات ترتفع فى الجو المقفل. إلا أن مصفى جعل يفكر ثم سأل الشاب عن سبب الإضراب، فلم يكن كغيره من جيرانه الذين اتخذوا قرارهم السريع خوفا أو تعاطفا. وإذ يشكو من الروماتيزم الذى استفحل فى الشهور الأخيرة فقد عجز عن الحركة ولم يستطع أن يفهم سرعة الأحدث التى تتالت. وداهمت السوق جماعة من رجال الأمن تبادلت مع الشاب المسلح إطلاق الرصاص، وقد قال رجل من أهل السوق:

«لا أحد يعلم رصاص من من الطرفين استقر فى جسد المرحوم»

هتفت الجدة وهوب بصوت خفيض لم يسمعه سوى المقربين من المعزين: «أحمد قتله الأتراك، وعبد السلام الفرنسيون، وأما محمد فصرعته رصاصات اليهود، ومصطفى، رصاص من قتله؟».

بعد فترة طويلة مما حدث، قال لى أحمد بأسى :

«عندما عدت إلى الدار، ورأيت جدى مسجى على الخشب، تمثلت لى كل الجريمة»

وهتف بحرقة خفت منها عليه :

«مصرع جدى مصطفى كان تافها.. تافها.. تافها»

ولم يتمالك نفسه، فأشاح عنى بوجهه، وانفلت مسرعا نحو القبلية، ليجلس هناك وحيدا. وعندما دخلت عليه بعد فترة أردتها طويلة، ابتسم فى وجهى بوداعة وهو يقول : «تلك هى النهاية.. انظر فهم يرتدون الثوب الأخضر» واستدرك بعد لحظة «ولكن الأخضر يموت أيضاً. الغبار يقتل كل الألوان»

وفى تلك اللحظات المتتالية كزمن مقطر يخرج من أنبيق بحساب، خيل إلى أن ابن العم أحمد هو أعقل من يمكن لى أن أطلعه على صندوق الأسرار، بما يحتويه. حتى تلك الوصية التى خلتها تقربنى من ليلى فإذا هى تجعلها تهرب كعصفور تحين فرصته فطار، فكرت فى أن أطلع أحمد عليها، ولكنى تراجعت فى اللحظات الأخيرة .

لقد بدا لى، على مر الأيام، أن أحمد هو الجانب العاقل من نفسي. وجلست بقربه وتحادثنا عن المستقبل الذى تجلى عنده محملا بالآمال التى لا حدود لها. جعل يتحدث عن أحلامه فى

ترميم الأنصارية وفى عزمه على النجاح ودخول الجامعة ليكون مهندسا مختصا فى الحفاظ على روح المدينة. وها هى ذي الجدة وهوب قد أصابت فى قرارها بإنقاذ أحمد وإعادته، وعرفت كيف تضم الأحياء والأموات إلى أرض الدار. كانت تعرف كيف تعيد الأمور إلى مكانها. ونظرت إلى أحمد فجأة ففوجئت بأنه يأخذ الكثير من ملامح الجدة، ثم خيل إلى أنه يسرق من ليلى تلك النظرات التائهة والصائبة فى وقت واحد. ولا أعرف كيف هممت عليه أعانقه، وكأنه عائد لتوه من سفر بعيد، فلم يظهر أى رد فعل، بل قال لى بعد حين :

«قلبك عامر بالحب الخفى يا أحمد»

فأضفت إلى صندوق الأسرار، رسالة كتبتها فى تلك الليلة عن كل العواطف التى تأججت كالحمى فجأة تجاه أحمد.

فرحت به، وبات ساعدى فى تقديم العون لأمى التى مالت إليه وقالت له إنها طالما حملته بين ذراعيها، وقد جاء الوقت ليحملها هو، فأبدى مودة لها أثرت بى، وأشعلت نار حب أكبر لأمى، وكنت قد صارحت الجدة بأن الاحتفال بعودة أحمد إلى الأنصارية قد بات ضرورة، إلا أنها ابتسمت تقول :

«بنجاحه فى البكالوريا، سيكون الحفل مكتملا. أعلم أنه سيكون من الأوائل»

وتضيف بسعادة غامرة:

«سيكون الحفل كاملا، سيعود المنشدون إلى الدار ليتربعوا على سدتهم وسيرجع الغياب ليشاركونا الحفل بعودة أحمد»

وكانت الجدة قد بدأت تعتمد على أحمد فى جمع الأعشاب من عشرات الحدائق الصغيرة المنتشرة فى الدار، وتقول له أحياناً :

«سنزرع هنا الليلك»

أو تأمره بحزم ملىء بالحب :

«ادهن تلك الأشجار بالكلس»

وكانت الجدة تزداد عزما يوما بعد يوم، وقد تورد وجهها الضامر، وتزداد ألفة أحمد فتبدو شيئا بارزا فى الدار، وذات يوم، تبارت مع أمى فى ضم الخيط إلى إبرة رفيعة دون عدسات مكبرة، ففازت الجدة عليها بالنقاط، لأن أمى لم تستطع أن تفعل فى المرات السبع سوى مرة واحدة، بينما الجدة وهوب لم تفشل سوى مرة واحدة وقالت بمرح وقور :

«لم يكن الخيط مناسبا للابرة»

ثم تطلعت إلى أحمد الذى كان يمسك بكتابه عند قدمى أمى، وقالت بحنان تدفق كالحليب من ثدى امرأة خصبة:

«عودتك تقوى النظر يابنى»

- ١٤ -

وفى خلال أيام متعاقبة كأنها حبات سبحة متساقطة الواحدة تلو الأخرى، كان لابد للهم من أن يطرق الباب من جديد. فقد داهم الدار صباح ذلك اليوم، عدد كبير من رجال الأمن بألبستهم المدنية والرسمية. انتشروا فى الدار الفسيحة كالجراد بأسلحتهم الباردة، ولم يكن أمامهم سوى أحمد فدفعوا به إلى الحائط فاستسلم لهم دون أية مقاومة وعندما خرجت عليهم بدهشتى من الصوت غير المألوف الذى تردد فى الدار، رموا بى إلى جانبه، فتلاصقنا ساكنين، فتمتم بصوت واثق :

«لاتخف يا أحمد»

وكان الجنود ببنادقهم السريعة، يدبون بأقدامهم فى كل اتجاه يبحثون بقلق ظاهر، إلى أن ظهرت الجدة وهوب خارج من غرفتها، فتناولتهم بنظرات سريعة وحادة كصقر يتفحص مواقع معركته. ويبدو أن مثل هذا الأمر قد حدث لها من قبل، وتكرر أكثر من مرة أيام الفرنسيين. وصاحت بهم:

«ماذا تريدون؟»

وتقدم رئيسهم باعتزاز شاب، يسأل عن صاحب الدار، فأجابته بصوت قوى :

«ألا أبدو لك يا ولدى أنى سيدة هذه الدار؟»

وقد بدأ أن الضابط أحس مهابة الجدة، فأشار إلى رجاله بالتوقف عن الانتشار والبحث فلبث كل فى مكانه. هتفت الجدة صارمة .

«من أذن لكم بالدخول إلى الأنصارية بأسلحتكم هذه؟»

فتقدم الرجل منها بهدوء وهو يقول :

«مكلفون بمهمة البحث عن مجرم هارب»

ثم استطرد بقوله:

«لابد أنه لجأ إلى هذه الدار، فأنت الجدة، فتشنا بيت والده ولم نعثر عليه»

كان ماهر بن سفيان ابن العم محمد، هو المطلوب. ذلك الفتى الذى لم أقابله منذ مدة، ولا أذكر أن مثل ذاك الشاب الذى لم يبلغ بعد العشرين من عمره، مطلوب بتهمة الإجرام. فتشنى رجال الأمن، وكذلك فعلوا مع أحمد ولكن الجدة تساءلت بإصرار:

«بأية تهمة يطلب ابننا ماهر»

ولم يشأ الضابط أن يفصح عن مهمته، فلاحق رجاله لاستكمال التفتيش الذى طال. كان يستعين بى أحيانا للدخول قبله فى خرائب الدار وأقبيتها وغرفها. وبينما الرجال يقلبون المخابئ، كانت الجدة وهوب تجلس على كرسيها فى الليوان، تتأمل ما يجرى ولاتنبس بكلمة. وقد أقعينا نحن الاثنين عند أقدامها بإشراف حارس، تحولت عيناه من الشراسة فى بداية الأمر إلى تعاطف عبر الزمن الذى كان يمر ببطء شديد. كنت أفكر فى ابن العم سفيان، الفتى، وأسائل نفسى :"

«هل يمكن له أن يشارك فى عمليات الإرهاب والقتل التى انتشرت فى الآونة الأخيرة»

قال الضابط، يستريح على طرف الليوان يدخن معلنا نهاية التفتيش:

«دارك تصلح متاهة للفارين من وجه العدالة»

وأضاف بعد برهة :

«وللعدالة نفسها»

وقالت الجدة بنوع من العتب الذى لايخرج :

«دارنا رحبت يوما بالضيوف من كل لون»

وبعد أيام ذكرت الجدة وهوب أن الانكشاريين غزوا الدار من قبل، وجنود الفرنسيين نقبوا فى الدار شبرا شبرا، وقد مالت على أحمد ومن ثم على :

«سرقوا بعض الآثار القديمة التى عثروا عليها فى القبو الشرقى»

كان الفرنسيون يحكمون البلد، ويتذرعون بالبحث عن الهاربين والسلام، فيضعون أيديهم على ثروات لم يقدرها الناس من قبل، والآن.

«ألا ترون أن هؤلاء الشباب هم من أبنائنا. لقد عرفت من الجنود واحدا. تقولون كيف»

وأكملت الجدة وهى تشير بأصبعها إلى العلية التى تتربع على طرف منها القبور القديمة:

«عرفته لأنه يشبه جده. أنتم لاتعرفون المرحوم الحاج عبد الجليل، أشهر منشدى الموالد. صوت عذب تخر له الأحجار نشوى»

وهتفت بصوت ملىء بالذكريات :

«لذا لم أقس عليهم، ولم أمنعهم من متابعة التفتيش»

كانت الحملة قد خرجت بلا شىء، ولكن الجدة استدعت

سفيان والد المطلوب ماهر، واستفسرته عن الحكاية، فصارحها بأن ابنه غاب عن البيت منذ شهر أو أكثر وأنه لايستبعد التحاقه بجماعة مسلحة تقاوم الدولة، وهو لايقوى على شيء سوى الدعاء له أن يحميه الله فى غيابه. وأما الجدة فقد قررت أن تستدعى رجال العائلة وشبابها لتدارك الأمر، وحماية واحد من أبنائها الذين ترعرعوا فى الأنصارية، فكان الاجتماع حافلا كمثل أيام الأعيان والاحتفالات والمآتم.

من الباقين فى المدينة، اجتمع أكثر من عشرين من الأحفاد وأبناء الأحفاد من عائلة الأنصارى الذين تجاوزوا الخامسة عشرة وهو سن الرجولة عند الجدة وهوب. وقد تصدرت صحن الدار مستندة بكفيها إلى العصا، تتأمل بعينيها اللامعتين وجوه الأفراد الذين كانوا يتقاطرون واحدا إثر واحد، يأخذون أماكنهم المتحلقة حول الجدة. وفى تلك الجلسة فوجئ الكثير من الأعمام وأبناء العم بوجود أحمد الذى أصرت الجدة على حضوره، فكان يتقبل تحاياهم بهدوء ووقار ينفى عنه أية تهمة رسخت فى ذهن أى منهم بالخروج عن العقل. ويبدو أن عينى أحمد كانتا تبحثان عن أهله، والده وإخوته، إلا أن أحدا منهم لم يحضر بسبب السفر أو العمل.وكان والده يعمل فى التجارة، مما استوجب

استدعاء عائلته لرؤية أفرادها فى بلد آخر كبيروت أو اليونان. علمت أن أحمد قد أصيب بخيبة أمل لم يلحظها أحد .

ابننا ماهر فى مأزق. ومن أبنائنا من يقدر على مساعدته. وأضافت الجدة:

«منكم السياسى الذى يملك كلمة عند أهل السلطة. ومنكم رجال مجتمع نفخر بهم، ونحن مطالبون جميعا بإنقاذ هذا الشاب المسكين»

وكاد التعليق على كلام الجدة ما بين مؤيد لها وما بين مهاجم لسلوك الشاب الهارب، أن يؤدى إلى خلاف ظاهر، لولا أنها دقت الأرض بعصاها وصاحت بنا :

«هذه الدار عرفت كل شىء. الجوع.. الكرم. مات ناس قبل الأوان، وهرب ناس. الفشل والنجاح عرفناه، ولكنا لم نعرف شيئاً واحداً، هو التخلى عن واحد منا، يهيم على وجهه الآن فى الظلام وفى الشوارع الخلفية هاربا من مطارديه.»

من جديد هتفت الجدة وهوب:

«نعرف شيئاً واحدا الآن، وفى هذه اللحظة، هو كيف نحمى ابننا، ونؤمن له السلامة والدفء والحنان»

أضافت بعد قليل :

«دعوا لى أمر أن يثوب إلى رشده، فهذا من شأنى»

ولم يجب أحد بكلمة، انشلغوا بعد قليل بالتهام الزلابية التى مازالت الجدة تتقن صنعها كما لايفعل أحد فى أرجاء المدينة كلها .

وكأن فترة الطعام مرت استراحة مرحة، عادت الجدة فى نهايتها إلى جديتها، وتوجهت بأنظارها إلى الضابط قصى بن مجيدة عمة المطلوب ماهر، قالت:

«اعلم أنك ياقصى يابنى، لك كلمتك فى مايسمى المخابرات. أليس اسمها المخابرات؟»

فلم يجب قصى بكلمة، ترك الصحن من يده وأطرق برأسه إلى الأرض «أنتم الذين تلاحقون الناس» فتمتم قصى، وكان نحيلا تأكل خده حبة السنة:

«نلاحق المجرمين»

هتفت الجدة، وكأن نشوة الانتصار تجعلها أشبه بليلى عندما تكسب فى لعب البرجيس:

«ابننا ماهر، هل تعتبره مجرما؟»

فلزم الضابط صمته. قالت الجدة بعد لحظات:

«تعلم أنى لست مع المجرمين، ولكن ابننا ماهر لايمكن أن

يكون منهم. انتم الاثنان من «سلب وهوب. أبوك شهيد فلسطين، كان فى طليعة المجاهدين مع القاوقجى «آنذاك طاف ابن العم قصى بعينيه، مستطلعا نظرات الرجال، ثم قال بحرص شديد :

«لو ثبت أنه متآمر فسأؤدى آنذاك واجبى»

قالت الجدة وهى تنسحب إلى غرفتها :

«عندما يثبت ذلك، أخبرنى يابنى قبل أن تفعل شيئا»

- ١٥ -

كان (التربى) من معارفى، فهو الذى يورد لكلية الطب الجثث والعظام من المقبرة التى يعاملها وكأنها ملك له. وكان حفاراً متميزا للقبور، لايمكن لك أن تنسى ابتسامته المحفورة على وجهه الخشن، فكانت أذناه الكبيرتان كمشدين يجمعان نحوهما الجلد السميك. كان طيب القلب لايتورع عن تقديم أية خدمة للزبائن من أهل الموتى أو من طلاب الطب. اسمه (عبد الحى)، وقد بدأ للجميع أنه لكثرة ما عاشر الموت، بات بعيداً عنه بعد الشاهدة المنتصبة على القبر من الجثة المدفونة داخله.

وقد رحب وأهل بنا، وكنت وأحمد نقف مترددين عند بوابة مقبرة الصالحين. سمعنا صوته يأتى من غرفته التى تحتوى على عدته وهو يصيح «أهلا بالشباب أهلاً» وانبرى لنا بجسده الهزيل يلوح فى قنبازه الذى أخذ لون التراب الطازج. مازحنا فى البداية ثم مشى أمامنا بحزمة من الأغصان المورقة .

كنت قد استمعت لنداء الجدة فى ضرورة توزيع الأغصان

الخضـراء على كافة قبور العائلة، والتى تتناثر على مساحة المقبرة القديمة الواسعة. لذا كان لابد من قطع الصالحين بشكل متعرج من شمالها إلى جنوبها ومن الشرق إلى الغرب. عشرات القبور العتيقة والحديثة زرناها ونثرنا عليها الأغصان، وكانت المناسبة هى مرور أربعين يوماً على وفاة العمة عائشة التى كان قبرها مازال ترابياً لم ينته الحجار بعد من تركيب الشواهد الحجرية عليه. وجلست مع أحمد متقابلين فى آخر المطاف، وقد غادرنا التربى سعيداً بالأجر الذى أرسلت به إليه الجدة. وكأنما صمت المكان ألجم لساننا فترة طويلة قضيناها فى تأمل الأرض التى أخفت عيشة فى أعماقها .

لقد عرفت الموت الحقيقى أيضاً. وهذا الذى تراه متناثراً هنا وهناك، ليس هو الموت. وأكمل أحمد وقد احمرت عيناه اللتان تعودتا على الكدر :

«فى المستشفى، لم يكن الناس ناساً ولا حيوانات ولا أزهارا ولا أشياء. لم يكونوا شيئا يذكر. ماذا نسميهم؟ لنسمهم بالأموات»

قال بعد لحظات وهو يمسح بكفه على تلة التراب برفق :

«هناك، تعلمت أن أظل حياً»

هتف أحمد وقد صفت عيناه:

«هتفت فى سرى هناك، أن ينقذنى أحد. ولم تكن آذان أحد معى سوى آذان الجدة وهوب. يالرهافة السمع والحس يا أحمد، ويا للحب الذى لا يأخذ لأنه دوماً يعطى.تلك هى وهوب» .

ألا أحب أنا، ولا آخذ شيئاً؟ قلت لأحمد بعد أن فرغنا من قراءة الفاتحة للمرة العاشرة :

«حدثنى عن تلك التى أحببتها ذات مرة»

فقال باقتضاب وهو يدور بعينيه فى أرجاء المقبرة:

«كانت نزوة يا ابن العم.. مجرد نزوة»

ثم تطلع إلى فجأة بحنان غريب:

«أما حبك أنت فليس نزوة»

وأضاف بعد لحظات فيما يعيد غرس الغصن الأخضر من جديد عند رأس العمة عائشة: «كائنة من كانت تلك الفتاة التى تحب، فإنى أعرف من عينيك أنها ليست نزوة، فأنت من الناس الذين لايعرفون الزمن الميت»

وتمتم بكلمات لاتنسى :

«هى فتاة رائعة لابد»

هتف بى بعد أن غادرنا المقبرة، وسرنا فى الطريق الترابية

نصف المعبدة:

«يبدو لى وكأنك تشبه جدنا الكبير أحمد»

وكنت أفكر ويا للصدفة العجيبة، فى أن أحمد يشبه الجد الكبير حقاً. كنا نجهله، فعرفتنا به الجدة بشكل لاينسى، والآن يصبح شاباً أمامى وبرفقتى وقد تشابكت أيدينا، فخيل إلينا ونحن فى حى الصالحين الكبير أننا نمشى فى فناء الأنصارية أو فى واحد من أحياء المدينة المكتظة بالشباب المتسكعين .

وقال لى انظر إلى المدينة من هذه الزاوية، فتطلعت إليها، فإذ بها مندمجة كالقرعة الشتوية، وتقف القلعة على صدرها كثدى امرأة حلوب، فتذكرت ليلى، وتذكرت لحظة هربها منى وأنا أفرغ من تلاوة الوصية القديمة عليها، فأصابنى وجوم، كذلك الذى يصيب الأحجار بعد شمس لافحة .

وبات أحمد صديقاً لايمكن فراقه. وكنت إذ أعود من الكلية أبحث عنه قبل أى شخص آخر أسأل عنه وأطمئن عليه، وكانت الجدة وهوب تراقب تلك المحبة بعيون تطفح بشراً. وعندما عدت ذات يوم أنادى عليه بعد أن افتقدته فى غرفته، سمعت ضحكتها الصافية تصل إلى أعماقى عبر الجدران والممرات، فخفق قلبى، وإذا رأيت ليلى معه فى القاعة الداخلية المهجورة، يتحادثان، لم

أحس بأية غيرة تمرق بسهامها إلى صدرى. أحسست براحة وأنا أسلم عليها وأحييه بإغماضة تسليم، فيقول لى :

«كنا نتحدث عنك»

فقلت لنفسى وقعت الواقعة، وقلت لهما بمرح متكلف:

«وكان الحديث عن الماضى والشقاوة»

فردت ليلى بثقة :

«عن المستقبل. وقال لى أحمد إنك لن تكون أفضل أطباء العائلة بل وستتفوق على أطباء المدينة»

كانت ليلى قد فرغت منذ قليل من مساعدة الجدة وهوب، إذ كان دورها بين نساء العائلة فى أعمال المطبخ. والتقت بأحمد الذى أقنعها بالبقاء قليلاً لانتظارى كى أقوم بمرافقتها إلى بيتها البعيد بعد أن تكررت حوادث العنف والشغب فى المدينة. وقررت آنذاك ألا أنسى لأحمد فضله هذا. وبقينا نحن الثلاثة فترة من زمن ربيعى تتفتح فيه أزهار غريبة. فجأة قلت لنفسى :

«لو أحبها أحمد أيضاً لما شعرا بضيق»

وشردنا أيام الطفولة وكأنها أشعار فى لعبة مذاكرة الأنفاس. كنا نضحك وكأن الهم لم يعرف الدار من قبل، فباتت الدار جنة.

أصرت ليلى على أن الجان لهم قامات طويلة ورفيعة كأوراق

الذرة تتمايل مع أنفاس من يشاهدها، فإذا كان خائفاً تمايلت. أما أنا فاعترفت بأنى رأيتهم فى تلك الأيام الخوالى، على هيئة ماعز تتكلم اللغة الفصحى. وقال أحمد إنه تعشى مرة مع ملك الجان فى الغرفة المجاورة للقبلية، وكان صغير الحجم عيناه ثقبان يرسلان لهباً لايحرق، وهو إذ يهوى فصفصة البذر فقد ظل أحمد فترة طويلة يضع له بزر الجبس على كورنيش الشباك إكراماً له .

لم نكن لنعرف الخوف من ذكر الجان أو تخيلهم، ولكنى فى تلك الليلة شعرت بأن جميع الجان يمدون لى ألسنتهم بشماتة، بعد أن عدت من رحلتى القصيرة مع ليلى وأنا أوصلها إلى البيت. لقد ساد الصمت طوال الطريق، وكأن جلستنا المليئة بالحيوية سدت علينا طريق الكلام فى ذلك المشوار. وعندما وقفنا أمام الباب، دعتنى للدخول فلم أفعل وتعللت بالدراسة، آنذاك هزت ليلى بكتفيها ودلفت إلى الداخل دون أن تبادلنى بتحية المساء التى كنت أبنى عليها آمالاً كبيرة .

وقال لى أحمد بعد عودتى، وقد جلسنا متقابلين فى الليوان يمسك كل منا بكتابه: «إنى أراها ابنة عم رائعة لنا، وتليق بك»

فنكست أعلام خجلى، وجعلت أتمتم ببعض المصطلحات الطبية المعقدة، وكأنى لم أسمع حرفاً مما قال .

بات صوت الرصاص يخترق أجواء المدينة مألوفاً فى الليل والنهار. وأصبح التفتيش عادة لا أستنكرها فى ذهابى إلى الجامعة وعودتى منها، أو فى الأسواق. كان البحث عن السلاح هم رجال الأمن والجيش، وكثيراً ما كنا نلجأ إلى مداخل العمارات تفادياً للرصاص المتبادل أو الطائش. وكان الأمان ينافس الهواء فى الأنصارية، فازدادت أوقات بقائنا فى الدار. واخترعت مع ابن العم أحمد أعمالاً نقضى بها أوقات الفراغ أو نهرب بواسطتها من جمود الدراسة فى كتب لا تتكلم .

ابتدأنا بنزع الطحالب عن شواهد القبور الثلاثة، بعد أن كادت تغطى على الكلمات النافرة. ووضعنا خطة لإصلاح عدد كبير من البلاطات فى أرض الفناء، وقد تخلخلت فمالت نحو الأرض الترابية من تحتها، وباتت مساحات يتجمع فيها الماء. وظهرت مواهب دفينة عند أحمد، عندما جعل يرسم على باب غرفة مهجورة بطريقة الحرق على الخشب، فذكرنى بابن عمنا

حسن الفنان المهاجر إلى أوروبا، وشدنا الحنين إليه .

كانت اللوحة تظهر يوماً بعد يوم. ابتدأت خطوطاً وبقعاً سوداء، ثم شكل امرأة يظهر ويلتف حولها عدد كبير من الرجال والأطفال والنساء والأشجار والعصافير والأعشاب المزهرة. وفى نهاية المطاف، لم تكن تلك المرأة سوى الجدة وهوب فى شبابها، ولم يكن ذلك الشباب يشبه إلى حد بعيد غير ليلى، فارتعشت، مثل الصور الجدارية التى رسمها الإنسان الأول على جدران الكهوف، أضيئت الأشكال بألوان فطرية صنعها أحمد من قشور الرمان والحناء وبعض الأعشاب الجافة. ووقفنا أمام الباب القديم الذى تحول إلى وشم برزت شرايينه وأعصابه بدقة، فانعقد لسانى أمامه، ولم أستطع أن أعثر على لغة للتعبير عما يتقافز فى داخلى من خيالات ووساوس وأحلام. قال أحمد بهدوء المستمتع :

«هل أعجبتك»

هتفت بإعجاب وأنا أحتضنه :

«كيف تعلمت كل هذا يا أحمد، كيف؟»

فقال بحبور المتواضع :

«هل أقسم على أنها المرة الأولى فى حياتى»

ثم أضاف ونحن نجلس على الأرض متربعين:

«في المستشفى كان معنا رجل مجنون، هو مجنون حقاً، خلف آثار سجائره على معظم أبواب المستشفى الخشبية، وكان المدير يعاقبه في كل مرة، يحرمه من السجائر المسموح بها أو أنه يوعز إلى رجاله بتلقينه درساً يخلف في جسده آثاراً واضحة»

وأتساءل ببراءة :

«ولم يبطل عادته ؟»

لجأ إلى جذوع أشجار الحديقة ليعالج قشرتها بأظافره، ويقول : يجب أن نترك آثارنا على الأشياء، لأنها سترشد إلينا الآخرين»

وتابع أحمد بأسى ارتسم على وجهه إطراقاً :

«ولقد أحرق المسكين جلده في نوبة عصبية، وتذكرت بعد ذلك أني أستطيع أن أخلف آثاري أيضاً. ويا للعجب لم أجد سوى الجدة وهوب»

فتساءلت بمكر :

«وهل تعرف الجدة في شبابها؟»

فقال بتسليم :

«وهل تعرف الجدة غير الشباب؟»

وحدث فى الليل أمر لن أنساه. كان أول تجربة لى فى حياتى. قرع الباب، وكانت الجدة وهوب تدقه بهمة الصبية فى ليل خلته عجوزاً لن ينتهى. وجدتها تقف عند المدخل بمنامتها المزركشة تومىء إلى أن أسرع، فقمت من فراشى الدافئ لتلفحنى نسمة باردة حملت معها بوادر شتاء حقيقى. همست أن ألحق بها ففعلت دون تفكير .

كانت عيناها تلمعان فى الظلام وهى تتطلع إلى لوهلة خلتها تحمل سر العالم، ثم تابعت طريقها فلحقت بها دون أن يدور بذهنى أن شيئاً خطيراً سيحدث بعد قليل وتابعت طريقها نحو سقيفة، وتسلقت درجها الضيق بهمة صبى مغامر، وكانت تحذرنى بإشارتها التى استشعرتها رغم الظلام أن لا أحدث صوتاً، فكنت كلص اتخذ كل الاحتياطات لحفظ خطواتى من تعثر. كان كل شىء قد بدا لى مبهماً، ولكن من يرفض أمراً لوهوب؟! .

وأشعلت قنديلاً، فالسقيفة القديمة لم تصلها الكهرباء بعد أن اكتشفت أنى أراها لأول مرة فى حياتى، وفوجئت بجسد مدمى قد تمدد على الأرضية الخشبية، وقد ظهر لى وجهه المغطى

بلحية سوداء وكأنه بدوى لم يعرف الراحة منذ سنين.

قالت الجدة : «ما عرفته؟»

وأعقبت بصوت أجش :

«ابننا ماهر، أصيب على مايبدو بالرصاص. ضعف كثيراً بعد لجوئه إلى الأنصارية. وغاب عن الوعى بعد أن تركته فى السقيفة»

ونظرت إلى بحزم لايعرف التراجع وهى تقرر أمراً :

«حياته رهن يديك، فلقد نزف كثيراً . يا ولدى»

ولا أعرف كيف جرؤت على القول بصوت مرتعش :

«يلزمه طبيب فى المستشفى»

فهتفت برجاء جاء كالأمر :

«ألست طبيباً؟ أليس ابن عمك؟».

وكأن الدفاع عن جهلى وخوفى من تجربة كتلك، كان ميأوساً منه، فرفضت الجدة اعتذارى. وكان لابد أن أفعل شيئاً مهماً كانت النتائج. نظرت إليه متفحصاً وقد احتضن بندقية غريبة، ويزنره حزام من القنابل، فداهمنى خوف من العنف الذى لم أجده نافعاً فى يوم من الأيام. وإذ قمت بفحصه، تبين لى أن رصاصة قد استقرت فى فخذه، ولكن قلبه القوى كان ينبض

ببطء قوى، فاستبشرت خيراً، ونقلت إلى الجدة أملاً كافأتنى عليه بابتسامة .

يبدو أن ماهر كان قد أصيب فى معركة، فلم يجد له سوى الأنصارية ملاذاً، فزحف إليها بقوة الشوق إلى الأهل، لتستقبله الجدة وتحفظه بعيداً عن العيون فى السقيفة السرية. وكانت قد أمرتنى أن أعيد إليه الحياة بخبرة طالب لايمكن الوثوق إليه بجرح سطحى. غلت الجدة لى الماء وعقمت سكاكين المطبخ، فاستخدمتها بقلب واجف أشق بها الجلد والعضلات، فإذ بالرصاصة تخرج من فخذه الممزق. وكانت تلك أول عملياتى الجراحية فى حياتى، وأنا الذى يخاف مرأى حيوان جريح. وفى الصباح استعاد ماهر شيئاً من وعيه، ونظر إلى بامتنان وتمتم باسمى، ثم أغمض حين توجه بنظراته إلى الجدة وهوب التى ماتزال متماسكة فى جلستها منذ ليلة أمس تراقب كل نفس من أنفاسه .

وعند الظهر، كلفت الجدة أحمد بالتناوب معى بالسهر على الجريح والعناية به. وكنا نحن الثلاثة نقوم على خدمته، هى بأدعية لا تنقطع ونصائح تخرج عن خبرة بالحياة والموت، وأحمد بجلد لا مثيل له، وأنا بالعودة إلى الكتب وكراسات الكلية أقرؤها

باحثاً عن المعلومات التى تقودنى إلى فعل مايجب فعله. ولا أعلم كيف استجبت لنصائح الجدة، وأنا أستخدم منقوع أعشاب لم أعرف لها اسماً، لغسل الجرح بها ومن ثم لاستخدام تفلها فى تضميد اللحم الممزق. وفكرت بعد ذلك فى سحر تلك الأعشاب، ولكنى لم أجد لها مبرراً علمياً واحداً .

ظلت السقيفة متكتمة على السر، إلى أن استعاد ماهر عافيته، فحاول الوقوف على ساقيه لكنه لم يستطع فانكفأ فى نفسه حزيناً وهو يقول :

«أريد أن أعود إلى إخوانى»

آنذاك هتفت الجدة وهوب :

«أليسوا إخوانك يا ولدى، هؤلاء أليسوا إخوانك؟»

فنكس رأسه لايجيب بكلمة. وقالت الجدة:

«حان وقت الحديث بجدية يا ولدى»

وبدت عيناه قلقتين، تبحثان عن أسلحته التى لم يجدها بقربه، ولكنه لم يجرؤ على سؤال أحد عنها .

كان ماهر أصغر أبناء سفيان الذى كان أكبر أبناء العم محمد، وكان جميلاً بعد أن استعاد عافيته، ولم تبد عليه آثار من عنف أو رغبة فى قتال، فخيل إلى أنى أمام فتى طيب القلب

ألصقت به تلك الأسلحة كرهاً. وقالت الجدة وهى تطعمه بيدها :

«ما الذى دفعك إلى هذا يا ولدى؟»

وتمتمت بحرص وكأنها تخشى أن تجرح له مشاعره:

«سمعت أنهم يقتلون» .

«القتل الحق»

هتف بقسوة، ولكنه ما لبث أن قال بهدوء بعد أن بات مجرداً من أسلحته التى طمرتها الجدة فى التراب :

«كرهت أن أرى الظلم، فوجدت جماعة تريد أن تمحو الظلم، فالتحقت بها».

وقالت الجدة وهى تمسح على رأسه بكفها .

«لايمحو الظلم قتل فى الظلام يا ولدى»

ظل الفتى ماهر صامتاً لايدل وجّهه على أى انفعال، بينما الجدة تتابع:

«الطبيعة تظلم، الناس يظلمون. الشتاء ظالم والجوع ظالم. فهل نقتل هكذا؟»

ولم يجب ابن العم الصغير بكلمة. ظل ساكناً كقطعة من حجر، وقالت الجدة وهى تمسد له فخذه بزيت نفاذ الرائحة :

«رجال الأنصارية يقاتلون وجهاً لوجه،و وجدك محمد الذى

قضى فى حرب فلسطين، كان يقاتل الأعداء وجهاً لوجه. وأنت. ألست أنت من أبناء الأنصارية يا ولدى؟» .

فأطرق ماهر برأسه، بعد أن صار حليقاً، فظهرت طفولته على حقيقتها.

وبعد أيام سمع صراخ الجدة يدوى فى الحوش بذعر ينادى علينا، فهرعنا إليها لنجدها على مصطبة القبور واقفة وخيال الدموع فى عينيها تهتف :

«لقد اختفى ماهر» .

فلبثت وأحمد ساكنين، وأطرقت الجدة آنذاك، وكأنها تعلن الحداد على رجل جديد من الأنصارية، التى كانت تلك اللحظة تبدو موحشة كما لم تكن من قبل .

- ١٧ -

كان العم سعيد والد ليلى، هو الذى يدير أملاك الجدة وهوب، التى كانت تنفق جميع ما يأتيها علينا جميعاً، دكاكين فى سوق المدينة القديم، ودور عربية للسكن هدم بعضها للتجميل أو آل بعضها للخراب، تلك كانت الأملاك التى تطورت إيراداتها من الفضة والذهب إلى العملة الورقية، فذهبت جميعها إلى الأولاد والأحفاد فى زواجهم أو دراستهم أو جنازاتهم أو هجرتهم أو فى بنائهم لبيوت جديدة مستقلة عن الأنصارية، ولا يذكر أحد من أهل الدار أن الجدة قد اشترت لنفسها ذات يوم حلية ثمينة، وهى التى أهدت الجميع حلياً وأشياء لها قيمة، إلا أن الجدة رغم ذلك، كانت تفرض على من يصبح قادراً على كسب مايفيض عن حاجته أن يقدم لها شيئاً من المال، توزعه هى بدورها على من يحتاج. ولم يكن أحد ليعرف إلى من يذهب عطاؤه. وحدث أن تخلف واحد من الأحفاد عن دفع المال المستحق عليه، فاستدعته الجدة إلى مقامها فى الليوان، نظرت

إليه بحنان، ثم أخذته من يده إلى القبلية لتقف به أمام الأضرحة بإجلال، ثم قالت له :

«اقرأ لى أسماء هؤلاء الأولياء من أجدادنا»

فنظر ملياً نحو الأضرحة التى لم تكن تحمل اسماً أو إشارة، وإذ تشتد به الحيرة يهتف :

«لم أفكر من قبل أن أضرحة الأولياء لا أسماء لها تدل عليها»

فقالت الجدة مبتسمة، وهى تربت على كتفه :

«يا ولدى هم أجدادنا، وخلفوا لنا كل شىء من وقف آوانا تحت سقفه، ومال عشنا به، لكنهم لم يتركوا لهم اسماً نذكرهم به»

ثم هتفت برقة :

«هكذا نحن نعطى ونأخذ من أجل العائلة»

ولم يتخلف بعد ذلك اليوم أى شخص عن دفع ما يتوجب عليه من أجل الآخرين.

وقد قال أحمد، بعد أن فرغ من تنظيف قاع الجب فى الدار الداخلية:

«متى نستطيع أنا وأنت، إعطاء الجدة بدلاً من الأخذ منها؟»

وكان هو الذى تبرع من تلقاء نفسه، بالنزول إلى الجب أكثر من مرة لإخراج الطحالب والأعشاب والأحجار من أعماق الجب الذى طال هجره. فوجدت نفسى مساعداً له. كانت الجدة قد تساءلت مرة عن أهمية الماء لأيام المحنة، فهب أحمد دون إشارة من أحد للعمل ساعات طويلة من أجل إعداده تحسباً لانقطاع الماء .

كانت الأيام الأخيرة التى تصاعد فيها إطلاق النار وانفجار القنابل فى كل مكان، وبات منع التجوال فى الشوارع مألوفاً، وانتشرت القوات تفتش وتبحث عن المسلحين الذين نشروا الخوف والذعر فى كل مكان. كانت تلك الأيام هى التى دفعت بالجدة إلى الاهتمام بالتموين والماء وقالت لنا ذات مرة :

«من يدرى فقد نضطر إلى استضافة الجميع هنا»

وخفق قلبى لمجرد ذكر عودة الأيام الخوالى، عندما يصبح الجميع فى الأنصارية الواسعة. آنذاك تعود لحظات الاستلقاء على الأرض بجانب ليلى نتسابق فى عد النجوم المنتشرة عبر السماء الصافية .

واستلقينا متعبين على بساط، أنا وأحمد، وعيوننا تتابع حركة الغيوم فى السماء. كان لابد من الصمت فترة كى أستطيع

ترتيب أفكارى المضطربة. ولكن أحمد ما لبث أن قال :

«ماذا يحدث لنا لو أنها ذهبت بعيداً»

«من التى تذهب؟ الجدة .. ليلى.. الأنصارية لا تذهب بعيداً أبداً»

وقلت له وعيناى معلقتان بغيمة حلت محل أخرى :

«أين تذهب؟»

وما كنت أدرى إلى أين يذهب ضمير الفعل. فتعثرت كلماته وهو يردد:

«لو أنها ماتت.. لو أنها»

وكأنى عثرت على من يعود ذلك الضمير، وفهمت معناه، فهتفت مستوياً فى جلستى: «هى لا تموت»

«من لايموت؟»

همس فى أذنى وهو يضمنى إليه، قال مبتسماً :

«ألم نتعلم كيف تكون العودة إلى الأرض؟»

فانتهرته بكلمات غير مفهومة لم أستطع ضبطها لشدة انفعالى. ثمن أجبرت نفسى على السكوت تمهيداً للاعتذار منه، ولكنه أراد على ما يبدو أن يغير مجرى الحديث فقال :

«هل تفهم حقاً ما يدور فى المدينة من أحداث؟»

وأضــاف بعـد لحظة وقـد ظهـر أنه يفكر بجـدية فى تلك الأحداث:

«إنى لا أفهم سراً للعنف القاتل، أهو عصر الموت المجانى؟»

وخيل إلى فى تلك اللحظات، أن أحداث هذه الأيام قد وجهت فعلاً نحو الجدة وهوب ليزيد همها هماً، وتتكاثر عليها الأحزان من كل جانب .

كان جدى أحـمد يحب صيـد السـمك، وأغرم به منذ صباه، فشجعته أمه وهوب. «الصيد يعلم الصبر، والصبر يعلم الصيد الحلال»

وكان جدى يذهب بعدة الصيد على بغلته إلى خارج المدينة ويرمـى بسنارته فى نهـر قـويق سـاعـات طويلة، وعندمـا يعـود مـحـملاً بالسمك، كـانت أمه توزع الصيد على الجيران وتبـقى القليل منه. كانت الجدة تقول آنذاك :

«الهواء يـحمل رائحة القلى إلى الجيران، وحـرام ألا يذوقوا منه»

وعندما زوجـتـه فـاطمـة التى لم يرها إلا يوم الدخلة، هتف بفرح وهو الذى مازال فى بداية الثامنة عشرة من عمره :

«فاطمة سمكة ذهبية تصطاد بعينيها أمهر الرجال»

وقـالت وهوب لكَنتـهـا فـاطمـة صـبـاح الـعـرس، والدار تـعج بالضـيـوف والمنشـدين والطبـاخين: «كـونـى مـسـتـعـدة يا ابنتى لإنجاب عشرة ذكور مثل زوجك أحـمـد، فـالأنصارية لاتعمـر إلا بالذكور.، وكان أن قتل أحمد، وزوجته ماتزال تـحـمل الجنين فى أحشـائها، وقد منعت الجدة الشابة فاطمة من الإفراط فى البكاء خوف التفريط بأحمد الصغير .

كـان حاكم المدينة العثمانى، الذى قيل إن أصله من قرية فى الأناضول واشتـهر بالقتل الغادر، يقيم فى مقره المجاور للقلعة، على مـقـربة من الدار، وبدا أنه يكن احـتـرامـاً لـلأنصـارية، ولكنه كــره أن يرى الناس من كل فـئــة ودين، يؤمــون الدار فى كل مناسبة، ويحتمون بها إذا ما داهمهم خطر أو وقع عليهم تعسف حكومى أو سماوى. فى أيام الاضطهاد الدينى أو وقوع الزلازل، كانت الأنصارية تفتح أبوابها للناس جميعاً من كل طائفة تحتمى بهـا فـتـعـثـر على الطعـام والدفء والطمـأنينة، فكان الحـاكم العثمانى يصرح لخلانه:

«ماذا تحسب نفسها تلك المرأة وهوب؟»

وكان إذ يستمع إلى الغناء يخـرج من فناء الأنصـارية الذى اشتـهـر بالكرم، يعض على شـفـتـه السفلى غـيظاً، ولكنه لايملك

سوى أن يقدم الهدايا فى المناسيات معلناً عن إعجابه بسيدة الدار. ولكن الحاكم لم يملك نفسه الحاقدة، حين كان يرى إلى بكر وهوب يركب بغلته البيضاء باعتزاز، ويمضى بها فى الشوارع، وكأنه يقوم باستعراض كى يرى الناس جميعاً أهمية أهل الأنصارية. وكان الحاكم إذ يلمح الشاب ببغلته من شباك قصره يهتف بحقد شديد :

«هل يحسب ذلك العجى أنه من الأمراء»

فأمر ذات يوم بتأديب الشاب المغرور، الذى أصابه الحظ فلم يلتحق بالجيش العثمانى الذى كان يخوض آنذاك حروباً مشتعلة لا تنقطع .

انقض الجنود على أحمد، يأمرونه بالتسبيح بحمد الوالى، فكان أن رفض الركوع على ركبتيه، وهو الذى لم يفعل ذلك إلا فى أوقات الصلاة. وظل الجنود ينهرونه بأعقاب البنادق حتى أدموا جسده الرقيق، إلا أن ضربة السيف على صدره كانت هى التى أعلنت النهاية .

وظلت وهوب أياماً تحتضن ابنها أحمد الذى ذوى كغصن انحبس عنه الماء. أما الشيخ أحمد زوجها، فقد انقطع منذ ذلك الحين إلى القبلية يصلى عند أقدام الأولياء، ويتجه إلى الله

بالدعاء حتى اشتهر بالنسك والزهد، ولم يعد له عمل سوى التعبد والصمت، إلى أن قضى نحبه بعد فترة من مصرع ابنه الذى لم يندمل له جرح فأسلم روحه على أصوات المنشدين يغنون له كل الأغانى التى عشقها منذ فجر شبابه .

وكانت الحرب الكونية التى اشتعلت بجنون ثم همدت، قد خلفت المجاعة والوحشة، لكن الجدة وهوب لم تسمح لآثار الحرب أن تدخل دارها، فوقفت ككتيبة من جيش مدرب فى وجه الجحافل الهائمة من الفقر والمرض والظلام، التى دمرت معظم بيوت المدينة. وقال لى أحمد مساء يوم جنت فيه المدينة بأصوات الرصاص والمتفجرات :

«هل تعلم كيف شفيت من مرضى فجأة»

وأجاب عن نفسه بعد لحظات :

«عندما رأيت الجدة وهوب تقف على أقدامها بكل تلك السنين المثقلة بالآلام، فتبدو لى وكأنها أقوى من أى شىء فى هذه الحياة» .

وتمتم بصوت مسموع :

«آنذاك خجلت من مرضى، فطردته»

وقلت لنفسى :

«لو أن أحداً يكتب تاريخ هذه المرأة، إذا لما عرف اليأس قلب إنسان».

وحدثتني نفسي أن أطلع أحمد على الوصية، ورغم خبي له الذي كان يتنامى يوماً بعد يوم، فلقد شعرت بأنها باتت السر المشترك الوحيد مع ليلى، وأن من حقها أن تقرر أيضاً أمراً كهذا. ولكن ما حدث بعد أيام قليلة، دفع بي إلى اتخاذ قرار خطير له علاقة بإفشاء كل ما أملك من أسرار دفعة واحدة إلى ابن العم الحبيب أحمد .

ذلك الصباح حوصرت الأنصارية بالمسلحين. كانوا مئات وحركتهم عصبية ولكنها واثقة، وسد الطريق الضيق المؤدى إلى الدار آلية مجنزرة رابضت في نقطة الالتقاء مع الشارع العريض، ووجهت مدفعها نحو سور الدار وكأنها تتوقع أن ينشق فجأة ليخرج منه الشياطين. وتدفق عشرات الرجال نحو الداخل يقودهم ضابط لا ينبئ لباسه المجرد من الرتب عن شيء، إلا أن نبرته القاسية وعينيه اللامعتين بالشرر كانتا تدلان عليه .

كانت الجدة أول من قابلهم، فأدهشها أن عدداً كبيراً يدخل دون استئذان دارها. نظرت إليهم بريبة، ولكن الرئيس نهرها

بمسدسه وطلب أن تخرج كل الرجال من مخابئهم. وكنت وأحمد منهمكين فى تشذيب أحواض النباتات فى الدار الداخلية، حين دخلت علينا الضوضاء، فخرجنا لنجد أنفسنا مرة أخرى محاطين بالجنود .

فتشنا بدقة، فاستسلمنا كعادتنا، ثم توجه الضابط بالحديث إلى الجدة :

«أين تخبئون الأسلحة؟»

ثم أضاف بصلف نادر المثال:

«معى أوامر صريحة بهدم الدار فوق رؤوسكم»

نظرت الجدة إليه باهتمام متفحص، ثم قالت بثقة شجرة لايهتز لها غصن:

«لم تهدم من قبل أيام الغرباء كى تهدم الآن يابنى»

كان الضابط شاباً لم يتجاوز بعد الثلاثين من عمره، فظهرت خطوط التفكير على جبينه، ثم أطرق لحظة وكأنه ما عاد يحتمل نظرات الجدة المسلطة عليه كالعقاب. هتف بعد قليل برقة متحفظة :

«ساعدينا على تسليم الأسلحة المخبأة، وأعدك بأن نخرج بهدوء»

ويا للتذكر، يصبح رعباً، وتعجز النفس عن إخفائه. تذكرت في تلك اللحظات، كيف حفر أحمد قرب شجرة الجوز لكي يدفن أسلحة ماهر. وتساءلت لنفسي :

«لايعرف أمر ماهر أحد سوانا، أنا والجدة وأحمد، فمن تراه دل علينا؟» .

خفت آنذاك على الجدة من استجواب لايرحم، وكأن أحمد استطاع أن يدرك قراري في أن أفعل شيئاً جنونياً يلصق التهمة بي ويبعدها عن الجدة، فسد على الطريق بحركة غريبة، تحول بها من شاب صامت إلى أبله، وجعل يتمتم بصوت متدرج نحو الهتاف الغريب : «دم.. دمدم.. سن سنغا.. مدم سنغال».

وقفز في الهواء بخفة سنجاب، وهو يشير بذراعه الملوحة نحو سقف الليوان المتهدم، وقد ظهر للجميع وكأنه مصاب بلوثة لا شفاء منها .

بات الموقف جديداً على قوات التفتيش، فأبعده الضابط عنه، وقد هم عليه أحمد يتمسح به كدرويش وجد الأمل في شخص له قوة. وقال الرجل للجدة : «أبعدوا هذا المجنون»

وقالت الجدة، وكأنها تدرك لعبة أحمد الذكية :

«حفيدي مصاب بجنون قديم، فقد قتل جنود السنغال عمه..،

برصاص الدمدم، وهو مايزال يتذكر حديث العائلة المستمر عن ذلك اليوم».

إلا أن تلك التمثيلية لم تمنع من تفتيش الأنصارية شبراً شبراً، ليخرج الجنود بعد ذلك بلا شيء. وكانت الجدة فى تعليلها ذاك، لم تخرج عن قول الحقيقة، وهى التى لم تلجأ إلى الكذب من قبل، لتفعله فى ذلك اليوم .

* * *

- ١٨ -

قـتل الجنود القـادمـون من السنغـال مع الجـيش الفـرنسى بجلدهـم الأسـود وعيـونهم المحمـرة، عمنا عـبد السلام. وجـعلت أقلب مع أحـمـد مـجلدا ضـم صـورا ملونة عن الحـرب العـالميـة الثـانية، استعرته من زمـيل لى فى الكلية مهووس بجمع الوثائق التى لها علاقة بالحروب. قلت، ثم كرر هو :

«ما أكثر ما قتل من ناس فى الحروب وأيام الاستعمار»

وابتسم أحمد بعد قليل وهو يقول :

«ما أكثر ما قتل من ناس فى أيام السلم»

واشتـدت وطأة الرصاص والتفتيش على المدينة، فبات ذهابى إلى الكلية رهـنا بحالات الطمأنينة الطارئة، لذا فقد طالت فترات بقائى فى الأنصارية، فاخترعت مع أحمد أعمالا كثيرة ومختلفة، كـان إحـداها النزول إلى الأقـبـيـة لفـحص مـحـتـوياتـهـا ومن ثم ترتيبـهـا. وكـانت لحظات الراحـة أثناء العـمـل فـرصـة لنا فى الحديث، وقلت له لأول مرة معلقا على حادثة التفتيش :

«شكرا لك على قدرتك فى إنقاذى من مأزق. كنت على وشك الاعتراف بمخبأ الأسلحة»

فتمتم على ضوء السراج الضعيف :

«على كل حال، فقد قمت بنقل الأسلحة من مكانها، حسبت لكل شىء حسابه»

وكان أحمد قد تسلل فى الليل إلى خندق القلعة، فرمى بالأسلحة التى حملها معه ماهر هناك، وتأكدت من جديد أنه بات الإنسان الوحيد الجدير بحفظ أسرارى وأسرار الأنصارية أيضاً.

كان عمنا عبد السلام فى الثلاثين من عمره، حين استقرت فى صدره رصاصة دمدم وقال أحمد ذات مرة :

«قرأت عن الأسلحة المحرمة عالميا، وكان الدمدم أخطرها»

وتساءلت، متى تعلم كل هذه الأشياء. وحمل أحمد بين يديه سيفا التقطه من صندوق قديم، فلمع نصله على ضوء النور الخافت. قال يتأمل السيف :

«أسلحة انتهى دورها»

ثم أعقب يقلب السلاح الذى مازال لامعا رغم الزمن :

«إثارة الخوف فى النفس أشد أنواع الأسلحة إثارة للفزع»

لقد رثيت لحال ابن العم ماهر، لأنه يقاتل فى عالم اختلط فيه الصواب بالخطأ، وتمازج الجنون بالعقل والقديم بالجديد .

«أتراه مازال حيا»

هذا ما تساءلت عنه، فقال أحمد بأسى:

«لقد مات فى كل الأحوال» .

تصدر عبد السلام مظاهرة لم تجرؤ على حمل السلاح، فجوبهت بالرصاص. وكانت جموع الناس فى المدينة تطالب الحاكم العسكرى بحقوق أنكرت عليهم. وكان جزاء العم عبد السلام أنه قضى نحبه فى عز الشباب، وخلف للجدة وهوب زوجته زينب التى رعتها مع أولادها الثلاثة سلام وسعيد وفاطمة. وهاجر سلام يأسا، وأما سعيد فقد كانت له ليلى ولبنى، وأما فاطمة فقد تزوجت وأعطت كثيرا من الأولاد .

«مسكين عمنا عبد السلام، لم ينعم بأولاده،ولا بأحفاده، ولابنعمة الحياة».

تساءلت عن نعمة الحياة، فابتسم أحمد وهو يقول :

«سنتكلم عنها طويلا، مادمنا أحياء»

وكانت الأمور تسوء يوما بعد يوم، وأخبار الفوضى والاغتيالات تحشو أسماعنا بالتخوف من الأسوأ. ولجأت الجدة

إلى المسبحة الألفية تتلو الأدعية من أجل سلام المدينة. وعندما فجعت بأستاذ لنا فى كلية الطب ذهب ضحية الأيام السوداء، عدت يائسا إلى الدار لأجد أحمد يحرق خشب باب القبلية ليرسم أشكالا غير مفهومة، بينما الجدة وهوب تراقبه عن بعد، دون أى احتجاج منها على تغيير خشب الباب الذى لم يطرأ عليه أى تعديل منذ مئات السنين. وظل أحمد يعمل والجدة تنظر، وأنا أتألم وشاع حزنى فى المكان، فتطلعت الجدة نحوى بحنان بينما تساءل أحمد عن سبب ذلك الوجوم الذى مسح وجهى فلم يترك أثرا من تفاؤل، وقالت وهوب وهى تمسح على رأسى بكفها :

«هى سنة الحياة»

«قد تكون سنة الحياة، ولكنها ليست سنة المجتمع»

ثم هتفت بأحمد أن يقول لى عن نعمة الحياة، فقامت الجدة بالنيابة عنه تقول : «نعمة الحياة أنها مازالت تستمر رغم كل شىء»

كان أستاذنا يمزج الدروس والمحاضرات بالتفاؤل، ولكن رصاصة ظالمة، وقيل إنها سبع رصاصات أسكتت شجاعته فى قول الحق، فظل حزنى عليه مستمرا .

وبعد أيام، جاء الخبر المفجع. رفضت الجدة وهوب أن تأخذ به أو أن تصدقه. ظلت طويلا تجول في الأنصارية باتجاهات متضاربة. تقف أمام القبور برهة، ثم تستعرض سطح البركة ولا تلبث أن تتجه نحو القبلية، ولكنها قالت أخيرا : «ما لم يكن جسد ماهر أمامي أمسحه بالطيب وأرشه بماء الورد، فالموت لم يحدث»

وقد تأكد لي أن رجال الأمن لم يسلموا جثته لأحد، فدفنت في تراب الغرباء الذي كان يرمي إليه بكل الأموات الغرباء عن المدينة في الماضي، والآن تحول إلى مقبرة تضم أجساد الخارجين على القانون أو الذين يرفض أهلهم استلام جثثهم لخوف أو بعد عن عار، وقالت لنا الجدة في مساء يوم بارد ضعف تيار الكهرباء فيه فبات شحوبا ينتشر في كل مكان:

«سيعود ماهر إلى الدار ذات يوم، ويقول لنا إنه لم يكن على علاقة بهذا الجنون الذي يتجول في المدينة كالصبيان الذين لايعرف لهم أب»

هل بات الجنون هو الذي يمشي حرا على قدميه في الشوارع والحارات وفي الخرائب والكروم. توقفت الدراسة نهائيا في الكليات والمدارس، وبات الخروج من الدار مغامرة. وازداد قلق

الجدة على أفراد الأسرة المتفرقين فى أحياء المدينة، وفشلت أكثر من مرة فى دعوتهم للإقامة بقربها فى الأنصارية. ولكنها رغم ذلك كانت تدور فى الدار تشير بعصاها «هنا نصلح السقف، وتلك الغرفة تتسع لعشرة أشخاص، ومطبخنا يطعم مدينة بأسرها» وكانت أصوات القنابل توقظ الخوف ودوى الرصاص يتردد ليل نهار، وكنت أفكر مع أحمد «مع من نكون؟» فيبتسم وهو يقول :

«لن أكون مع أحد. أنا أريد الآن أن أكون مع نفسى، ولا أريد لنفسى إلا أن تكون هنا» وكنت أفكر :

«أريد أن أكون دوما مع المدينة فى استمرارها. أريد أن أكون مع الحب والطمأنينة.. أريد أكون مع الجدة.. مع ليلى»

وفى تلك اللحظات العصبية، ومع موت عدد من رفاق الكلية والجامعة والأساتذة كنت أعقد العزم على أن أشرك أحمد فى أسرارى، ولكنى أجبن عند كل لحظة أقرر فيها مثل هذا الأمر. إلا أن الشىء الذى فكرت فى أنى لن أتراجع عنه، هو حبى لليلى وكرهى للعنف الذى يرسل أصواتا تخدش حلم المدينة فى السلام .

- ١٩ -

لا أصدق. من يصدق؟ لا فأنا أرفض ما تقول. ودقت الأرض بقدمها، وذهبت إلى نهاية الجدار الذى نمت عليه الطحالب، لتعود أكثر تصميماً وهى تقول :

«لا أصدق أنه مات»

وكررت على ابن العم قصى بن مجيدة، وكان يحاول كمسئول فى الأمن أن ينقل لها الحقيقة :

«أبناء الأنصارية يخرجون بلياقة من هنا إلى التراب»

هكذا هتفت، وضربت البلاط بالعصا الجديدة التى صنعها لها أحمد من غصن فتى لشجرة الجوز وقد لمعت عقد السوداء، وتوجت رأسه بشكل صقر حفره أحمد بدأب وهو يردد :

«قوية جدتنا كالصقر وعيناها تخترقان الحجب كعينى الطائر الساحر»

وصاحت الجدة فى وجه قصى :

«لم تركناه كى يغرر به فيعمل فى الظلام لاعبا بأسلحة الموت،

ذهب بلا معنى، ودفن فى التراب بعيداً عن أحبته»

وهتفت بقسوة وكأنها تغالب الضعف الذى بات من المحتمل أن يغلب على نبرتها :

«من المسئول؟ أنا وأنت .. كلنا نتحمل المسئولية»

وكان الغضب فى عينيها يغلب على الحزن .

ماهر مات يحمل السلاح، ولكن جده محمد مات يحمل السلاح من أجل فلسطين. وتابعت الجدة وهوب بانفعال كبير :

«خرج ابنى محمد ببندقية قديمة ليلحق بجيش القاوقجى الذى ذهب برجاله ليحارب فى فلسطين. أنا فخورة بمحمد وسأبقى فخورة به إلى يوم أموت»

وكانت تلك هى المرة الأولى التى أسمعها فيها تتكلم عن موتها، فأنكرت ما سمعت .

هى التى أعدت له الزوادة قبل أن يسافر إلى فلسطين. كان باص المجاهدين يقف منتظرا خارج المدينة وفود الرجال. قالت له أمه يومها:

«ستكون ابن الأنصارية حقا عندما تعود وقد فعلتم شيئا من أجل أرضنا فلسطين»

وأضافت آنذاك :

«سلم لى على كل الأمــهــات هناك. قــبل أياديهن يا ولدى وليباركك الله يا محمد» وأحضره رجال مهزومون، وكان ملفوفا بالعلم الممزق الأطراف، وقد عصب رأسه بقماش تشرب بالدم المتجمد. وضعوه حيث أمرتهم الجدة على فراش لين فى الليوان كان قد اتخذ مقعدا للمقرئ الذى كان يحيى ذكرى الجد أحمد الكبير. بدا العم محمد وكأنه نائم يرى حلما يائسا، فنكست الجدة رأسها لحظة، ثم تنبهت إلى ولاويل زليخة زوجة محمد، فنهرتها بنظرة ترعب الحجر. تلقفت ابنها بضمة أم جفت دموعها، ثم خالفت شريعة الشهداء الموتى فغسلت أقدامه بماء الورد، ثم زينت جسده بكل أنواع الزهور والبراعم التى انتشرت تلك السنة فى الدار كما لم يحدث من قبل. وفى ذلك اليوم، أمرت الجدة كل النساء والرجال والأطفال أن يقبلوا جبين الشهيد محمد،ومن بعده يديه الاثنتين .

وخرجت جنازة العم محمد على أنغام أهزوجة كانت سائدة فى ذلك الزمان .

ومنعت الجدة كل مظاهر الحزن فى الأنصارية، ففتحت أبوابها للناس، وقد أجبرتهم على تقديم التهانى بدلا من التعزية، وكانت هى التى تجلس فى صدر الليوان تدير الأحاديث التى لم

يقترب واحد منها من قصة الموت .

ومع أن محمد كان الثالث من الأبناء الذى يقتل بأيدى الغرباء، الأتراك والفرنسيين واليهود، إلا أن مظاهر الاحتفال بفرح الموت بلغت أوجها باستشهاده. وقد أجبرت الجدة يومذاك أرملته زليخة بأن تقوم بنفسها بتقديم القهوة وشراب التمر هندى للزوار. تأكيداً على فخر العائلة بأنها مازالت قادرة على إنجاب رجال لايحسبون للموت حساباً. وقد شاع فى المدينة أن سيدة الأنصارية لها قلب من حجر وأن عينيها لم تخلقا للدموع. إلا أن موقف الجدة وهوب من موت حفيدها ماهر، كان يخفى أسى فى الأعماق لم يستطع الغضب أن يخفيه. وقال الضابط قصى بعد أن بقيت معه وأحمد :

«كنت أحميه لو أعرف مكانه، ولكن الأمور باتت معقدة والمدينة جنت، ولا أعرف إن كنت أنا نفسى مستهدفاً، وقد أقتل غداً أو بعد»

وكان أكثر ما يؤلمه، أنه حمل أكثر من طاقته فى مسئولية موت ماهر، إلا أنه لم يخف عجبه من أن أسرتنا فيها القاتل والقتيل، ومنها من يمثل السلطة، وفيها من يرفع على السلطة السلاح، وقد أشار عليه أحمد أن يستغفر الجدة فى الذى لم

يرتكبه، رغم كل شيء، فغضب وهوب لعنة قد تصيب الجميع.
واستجاب قصى لطلبه، وذهب إليها فى غرفتها يقبل يديها بمذلة، فمسحت على رأسه بعطف، واستطعت من النافذة أن أراهما متعانقين كأم تستقبل ابنها الغائب منذ سنين فى سفر بعيد .

وقلت لنفسى فى ذلك اليوم :

«أى رجل فى هذا العالم يليق بامرأة عظيمة كالجدة وهوب»

وكنت فى الحقيقة أتذكر ليلى أيضاً، وأفكر بها امرأة ليست بالقريبة الدم، ولا بالبعيدة بعد النجوم، وليست بالحبيبة ولا بالوهم الذى يبتعد عنك كلما اقتربت منها، وليست بالأنثى أو الملاك الذى يرفرف عليك بأجنحته الشفافة فى الحلم وفى اليقظة، وكنت كلما فعلت لا أجد سوى الجدة وهوب فى شبابها الأول .

* * *

- ٢٠ -

وكنت فى الماضى، وقبل عودة أحمد من منفاه فى المشفى، أقوم بوظيفة شبه دائمة وأسبوعية للاطمئنان بالنيابة عن الجدة وهوب على جميع أفراد العائلة المقيمين خارج الأنصارية. وقد قام أحمد بعد ذلك بحمل نصف تلك المسئولية، فبات يجلس بقربها ينفذ لها أوامرها وتوجيهاتها. اسأل يا ولدى عن دلال ابنة مصطفى. اطمئن على أولا فاطمة ابنة عبد السلام. قل لمروان أن يرسل أولاده غدا فقد اشتقت إليهم. وكان لايغيب عنها اسم من الأحفاد أو أبناء الأحفاد، فهى تعرف كل شىء عنهم. : دراستهم، أحوالهم وعواطفهم، مهنهم ووظائفهم وأعمالهم التجارية. ولم تخطئ يوما فى معرفة حال أى منهم، وكثيرا ما كانت تلقى أوامرها عليهم فى اختيار دراسة أو فى استشارة طبيب لولد مريض. وكان لها ذوقها فى اختيار الملابس إذا ما استشيرت، وكانت توجيهاتها فى شراء أثاث يحل طابع المنطقة مثيرا لاعجاب الغرباء والأجانب ممن يزورون بيت واحد

من أبناء الأنصارية، فيعلقون على البيوت التى يرونها بشىء له علاقة بالأصالة والاعتزاز بالوطن .

أما ليلى، فكانت الأثيرة عند الجدة وهوب. كانت تطيل الجلوس معها، تحادثها كامرأة ناضجة، وتأخذ منها أقوالها كآراء سديدة تعممها على الآخرين. وقالت لها ذات مرة :

بانتظار أن تتخرج ابنتنا ليلى مهندسة، لكى تشرف على إعادة الزخارف المتهالكة على الأرض أو الضائعة.. فى سقوف القبلية والليوان والغرف الأخرى

وكانت ليلى تخرج من زيارتها سعيدة فتمر بى ترمى السلام بسعادة أحتفظ بها لنفسى. وفى ذلك اليوم الغريب حقا، قالت لى الجدة وهوب :

أنت تتعلم لكى تصبح طبيبا. حسن، ولكن هذا لايمنع من أن نبدأ منذ الآن مع ابنة عمك ليلى، فى وضع خطة للمستقبل لإعادة سقف الليوان إلى ما كان عليه .

وتضيف بشىء من التسليم :

أنا لا أتصور عائلة فيها شاب مثلك وصبية مثل ليلى، ترضى بخراب سقف ظلل خلال عشرات السنين كل أفراح الأنصارية وأحزانها .

ويومها لجم لسانى الخوف من أن أتفوه بكلمة واحدة قد تكشف سرى، فلبثت صامتا، ولكن الجدة سرعان ما أمسكت بيدى بكفيها الدافئتين، وتمتمت بكلام لم أفهم منه سوى همهمات غريبة :

ليلى .. أنت .. سقف الليوان ....

وتزداد وطأه التفتيش على البيوت والحارات. وأعرف أن منطقة المحافظة التى تقيم فيها ليلى قد طوقت ذلك اليوم بالجنود لتفتيشها، فوجدتنى مدفوعاً كالملسوع أتوجه نحو بيتها .وكان ذلك التصرف الغريب أول بادرة تحقق إرادتى الخفية فى الاقتراب أكثر من ليلى بعد أن أهلكنى التردد، وما عدت أحتمل الأيام تمر هكذا دون أن أرمى بكل أسرارى عند أقدامها، وليحدث بعد ذلك ما يحدث . وأمضى مسرعا إليها، يشب بداخلى حريق الجنون الذى قضى على كل تعقل سابق، فقطعت الطرقات المسكونة بالخوف والهجر والتى باتت ذلك المساء وكأنها لا تعرف سوى ساعات الضجر على مدار اليوم .

لقد اصطنعت الخوف على ليلى كى أجد طريقة أراها فيها، لأنى كنت على ثقة من أنها قادرة على حماية نفسها، كما أن مكانة والدها كانت كافية لدفع أى خطر عنها. لقد اعترفت

لنفسى وأنا أقطع الخطوات فى شوارع المدينة بثبات، بأن فتاة ما لن تحل فى قلبى محلها. تذكرت زميلاتى فى الكلية وكانت واحدة منهن قد دست لى مع كتاب الكيمياء رسالة حب سافرة فلم أخجل من نفسى وأنا أمزقها، ولكن هذا الأمر لم يمنعنى من متابعة التحدث إليها مما شجعها على تكرار الكتابة، آنذاك أعدت إليها رسالتها دون تعليق، فأشاعت بين الزملاء فى الكلية بأنى ألاحقها بالغزل، ولكن ذلك الادعاء لم يدفعنى حتى إلى توجيه العتب إليها، فازدادت نقمة، وباتت تؤكد لكل من يعرفنا نحن الاثنين بأنى شاب سيئ الخلق، وأن مستقبلى فى الطب لاشىء.. لكن ثقة الجدة بى وحديث ليلى عنى زادنى تصميما على النجاح فى المهنة التى باتت قدرى. وفى الطريق فكرت فى تلك الزميلة وتمنيت لها أن تحتفظ لنفسها بصندوق للأسرار بدلا من كشف عواطفها لكل الناس .

وكان العم سعيد هادئا كعادته، ومشرقا كتصاميم أبنيته التى اشتهرت بأنها محاولات صادقة للحفاظ على الأصالة، وعندما فتح لى الباب كان متهللاً، وأظهر حبا لى لم أعرفه من قبل. وكان أول ما بادرنى به أنه قال :

كيف اختراقى لصفوف الدبابات والحواجز مغامرة لم أمر

بها من قبل، ولكننى ادعيت أمام الجنود بأنى من سكان المنطقة، فأتاحوا لى فرصة المرور. كان همى أن أرى ليلى فرأيتها تقبل على مرحبة بدهشة، فعلمت أن مخاطرتى لم تذهب عبثا .

ادعيت فى البداية أن الجدة قد أرسلتنى للاطمئنان عليهم، فبان عتب على وجه العم سعيد لأن خطرا ما كان من المحتمل أن يصيبنى، أما ليلى فقالت:

«لولا الخطر لما رأينا أحمد هنا» وكانت الأم هادئة، ولكنها لم تتخل عن إعجابها السابق بى فقالت :

«حماتك تحبك»

فخفق قلبى كمراهق صغير وأنا ألبى دعوتها إلى عشاء تمنيت لو أنه استمر أبد الدهر .

على المائدة، كان الحديث يدور عن الجدة وهوب، وقد نسينا تماما احتمال أن يدق الباب فجأة فيدخل رجال التفتيش. قالت أم ليلى :

«هى أمنا جميعا»

ثم أعقبت باحترام كبير :

«لم أحب أحداً أكثر من أمى سواها»

وتابع العم سعيد :

«هى التى دفعتنى لدراسة الهندسة، وقبل أن أسافر إلى أوروبا قالت لى يا ولدى تعلم منهم كل شىء، ولاتنس بلدك، فلا يغلبك إعجابك بهم. حجارة المدينة تنظرك»

وابتسم تملأ وجهه ذكريات قديمة

«وكانت كلماتها أعظم قاعدة أفادتنى فى حياتى»

وقاطعته ليلى بثقة :

«ولكنك أهملت الأنصارية»

فهتف العم سعيد بشىء من الفخر:

«ولكنى لم أهمل المدينة»

ثم أعقب يداعب خد ليلى الذى استسلم له :

«هى مهمتك ياليلى»

ودخلت فى الحوار وقد بدت على رغبة المرح بعد جدية عشاء طويل :

«أما أنا طبيبا سأكون، فما دخلى بالعمارة؟ الجدة وهوب تحملنى أيضاً مسئولية ترميم الأنصارية»

وصفق العم سعيد بنشوة :

«أحسنت الجدة باختيارها»

بينما ليلى تتمتم بصوت تسلق نشوتى الخفية :

«أليس بناء الجسم البشرى يشبه العمارة؟»

لم أرفض أن أدخن سيجارة قدمها لى العم سعيد رغم أنه يعلم أنها طارئة على، ولكن الجلسة فى الصالة الدافئة بالمودة وورق النبات الأخضر، دفعت بى لأن أستسلم لأية نزوة.وقطع على صمت قصير مر بنا، أصوات طلقات متفرقة تخللتها صيحات تحذير أو ذعر، فقالت ليلى :

«حمدا لله أن أحمد جاء فى الوقت المناسب»

فلم أستطع أن أميز هزلها من جدها، إلا أننى غرقت فى نشوة الكلمات التى نطقت بها.

الحمد، اسمى، الوقت المناسب.. ياللمتعة ...

وعاد الحديث عن الهندسة والمدينة والجدة وهوب، التى لمحتها أمامى فى الصالة الأخرى فحدقت لا أصدق عينى. ويبدو أن ليلى قد تبينت تغير ملامح وجهى فقالت :

«لم ترها من قبل»

وقادنى العم سعيد من يدى تحلق بنا العائلة . هناك وقفت أمام اللوحة الزيتية تملأ الجدار بنور خاطف قالت الأم :

«رسمها لنا فنان فرنسى عن مجموعة صور أرسلها سعيد إليه»

وقالت ليلى :

«تأملها من كل جانب، فستجد الجدة فى كل أطوار الشباب والشيخوخة والجمال»

وكان العم سعيد يتكلم ووجهه لى وكأنه يقرأ فى وجهى انفعالات الإعجاب :

«كل تفاصيل الحضارة المعمارية للبلد تجدها فى هذه اللوحة. بناء متين ورشاقة صلبة ولربما هى صلابة رشيقة. ولون الصحراء المتحضرة الذى هو لون المدينة، ما بين الترابى ولون الجسد البشرى المعافى».

كانت تقف بهيبتها، فلا تظهر التجاعيد إلا فى الأرض التى وطأتها بقدميها.

جميلة وقد بدا سور القلعة عن بعد وكأنه هالة ضعف نورها لينصب أكثر على الوجه الذى اختلطت فى بشرته ألوان الابتسامة والثقة والحزن. وتذكرت كيف تعقد كفيها على صدرها عندما تعزم على فعل شىء من شأنه أن يغير مصير واحد منا، فتطلعت إلى ليلى التى كانت واقفة كما تفعل الجدة فى الصورة.

ودوى الرصاص من جديد، فجمعتنا الجلسة الحميمة من جديد. حدثنا العم سعيد عن طفولته، وعن أيام الأنصارية

الأولى، وعندما اقترب الرصاص أكثر، عقب قائلا :

«ما يحدث الآن من قتل فى الظلام، ومن تعسف أمور تقلق الجدة وهوب حقا»

وهتف بحزن واضح :

«يا لهول ما رأيت من أحداث. موت أعز الناس، فراق الأهل. المدينة نفسها تعرضت للزلازل والاحتلال والتخريب، ولكنها لم تفقد قدرتها على الاستمرار لحظة»

ونظر إلى ليلى بعين الحب وهو يقول

«ليلى ولبنى. ولكن ليلى أقرب إلى الجدة. أرجو أن تكون مثلها»

فكانت كلماته تزداد حفرا فى الأعماق المهتاجة كبحر عميق .

ولم تنقطع خطوات الجنود والآليات فى الشارع عن الحركة، كما أن الرصاص كان يفرقع بين فترة وأخرى، لذا تقرر أن أبيت عندهم. كنت سعيدا، ولكن التهيب من تلك الليلة لم يفارقنى. وقفت مع ليلى من جديد أمام اللوحة. صامتين كنا. ثم على الشرفة جلسنا، والليل يقترب من منتصفه. ولكنى لم أستطع أن أبوح لها بشىء، فكانت ليلتى أرقا لم ينقطع عن التوتر لحظة حتى أدركنى الصباح. لقد تأكد لى أنى غير جدير بحب علنى، وأننى على مايبدو خلقت لحب لايغادر الصدر المغلق.

- ٢١ -

الهجرة. أيضا فكرت بها كما كان يفكر كثير من الناس أعرفهم. أهاجر؟ وطافت بذهنى فكرة الهجرة وأنا أعبر الممر الطويل فى الكلية يسقط على ضوء شديد من الزجاج الذى يحف بالطرفين. كانت السماء قد انفتحت فى ذلك اليوم على الشمس والوساوس والهموم المبكرة على شاب فى بداية الطريق. ودخلت المدرج الذى كان هادئا ثم اكتشفت أنه شبه فارغ إلا من ثلاثة طلاب آخرين تبادلت معهم التحايا الباردة، وبعد قليل انسحبت إلى المقصف أشرب الزهورات الساخنة وأفكر بالهجرة .

أين أبناء الأنصارية الآن ؟ مهاجرون إلى الداخل، أو أنهم غادروا البلاد هل أصبت باللوثة؟ أهى لوثة حقا تصيب من بقى، أم أنها الفكرة تختمر فى اللاشعور وفجرتها الآن خيبة الحب. ولم خيبة الحب، فمازال الأمل باقيا .. لقد انقسم الطلاب على أنفسهم فى الكلية. عدد منهم كان يبدو عليه أنه يناصر مايحدث فى المدينة، وكنت أستمع إلى همس بعضهم يفرح لمقتل هذا أو

ذاك فأتعجب، أيفرح الناس لمقتل الناس وكان أحمد لايفارق خيالى فى تلك اللحظات. كنت أتمناه رفيق سفر طويل، نضرب فى أعماق الأبعاد الأربعة نتفرج ونتعلم ونستمع إلى لغات جديدة فيها من الحب أكثر مما فيها الموت والقتل. لقد أثر بى مصرع أستاذى. وعندما فكرت بالجدة وهوب إذ تعرف شيئا عن الرغبة فى الهجرة، كنت أرتعش خوفا .

وتحادثت مع أحمد عن الهجرة. قلت له:

«حقيبة على الظهر، وإرادة على السفر إلى أى مكان. نمشى ونفكر بلا شىء، وإذا ما صادفتنا مشكلة فكرنا. أريد أن نرحل ونبتعد فقد نفكر أفضل»

حدثته عن خيبتى فى أن أجد سلاما لمدينة لم تعرف من قبل سوى الهدوء. فنظر إلى نصف مغمض، ثم مد إلى بيده من خلف ظهره، وكانت القبضة مغلقة على شىء لم أستطع معرفته، قال :

«خذ»

«ما هذا الذى فى يدك»

«خمن»

فأجهدت فكرى فى البحث عن احتمال قد يكون صحيحا فلا

أخيب ظنه فى قدرتى .

«مأكول أم منظور»

فضحك، ثم انفجر فى ضحك أسال الدموع من عينيه. هتفت:

«عجزت؟»

فقال ممازحا :

«وقعت أم رماك الجمل؟»

وقرأ فى عينى عجزى، آنذاك بسط كفه فإذ لم تكن تمسك بشىء سوى الفراغ، الذى لا أظنه سوى الريح الخاملة فى يوم سكن فيه كل شىء، حتى العقل. هتف أحمد :

«تلك هى أفكارك ومشاريعك يا ابن العم»

ثم قال بجدية أخافتنى :

«لا شىء .. لاشىء.. هل نسيت أمك، وأمنا وهوب. أنت وأنا زوجان لامرأتين وحيدتين. هل مازلت تفكر بالهجرة؟»

ثم طفت ابتسامته كريحانة أنعشها الندى فانتشرت .

كانت أحلامى قد عصفت بى فشطحت. فكرت بالعالم الذى يمتد شمالا من مغامرة المجهول، إلى الجنوب حيث لا حدود لشغف الإنسان بالاستكشاف ذهبت فى الشرق وفى الغرب، شرقت فى العتمة وغربت فى النور. كنت أفكر فى نفس بعيدة

عن أسوار الأنصارية العالية، والتهاب المدينة بالجنون، واليأس الذى خيم على كل الناس، وجبنى فى حب ليلى الذى بات قدرا. وفجأة يقول أحمد: «حسنا ياابن العم، لو أنى هاجرت معك، من يقبل جنونى الذى بات موقفا تعترف به الناس والأختام»

«من قال إنك مجنون؟»

«من قال إنى عاقل»

وأكمل وهو يمشى بخطوات عسكرية فى صحن الدار :

«ولن يقبل أحد جنونك لأنك ترافقنى»

كنت أقول لنفسى :

«تملك عقلا أرجح من عقول الآخرين»

وكان يتمتم :

«وما أدراك .. ما أدراك ...»

وقفز فجأة برشاقة قرد ليصبح فوق غصن من أغصان شجرة الجوز. وقد حدث هذا فى غمضة عين، فهتفت به خوف أن يقع، فانتقل إلى غصن أعلى، وقد تخيلت أنه فقد عقله حقا، صحت من ذعر :

«انزل يا أحمد، أتوسل إليك»

«هل أرمى بنفسى؟ سأرمى بنفسى»

فتويلت، ثم اختنق صوتى بالدمع. آنذاك قال وهو يتدلى بهدوء إلى أسفل: «هل صدقت؟ من المجنون الذى ينتحر، وهو الذى لم يفعل شيئا بعد له قيمة» كنت أحتضنه بشوق، بعد أن انقشعت الغمامة وتبدد الهلع وباتت ذراعاه بديلا للزوجة الخوف الذى أحاط بى. قال أحمد وهو يدخن لأول مرة أراه فيها، وقد أخرج سيجارة من عبه :

«قررت أن أتابع التدخين منذ اليوم بعد أن هجرت هذا السم منذ سنين»

ثم قدم لى واحدة فترددت بأخذها منه، ولكنى ما لبثت أن قلدته بوضعها فى فمى دون إشعالها، وأنا أذهب فى حركة كالمكوك أمام القبور الثلاثة دون أن أبادله كلمة واحدة.

وفى المساء، فاجأتنا الجدة وهوب برغبتها العجيبة فى أن تخرج من الدار . كانت تريد أن تجول فى المدينة بحرية، بعد أن طال غيابها عنها

«ماذا جرى يا أولاد؟ موسم للجنون لم نعرفه من قبل»

ثم قالت وهى تستعد للخروج:

«تعالوا نلقى نظرة على ما يجرى»

أيام العثمانيين وحروب السفر برلك، وأيام الفرنسيين،

والانقلابات المتعاقبة. وقالت :

«أريد أن أتأكد من المدينة أنها تقبل ما يحدث»

وتمتمت وهى تضع الشال على كتفيها :

«أريد أن أموت قبل أن أراهم يوزعون الموت بالمجان»

وخرجنا فى العتمة، نحيط بها أنا وأحمد. كانت بيننا دقيقة كظل يمشى ببطء، ولكن الثقة نفسها نظمت خطواتها وخطواتنا. واستقبلنا الهواء الذى يلف القلعة عادة، بلفحة باردة، فارتعشت ولكن الجدة وهوب قالت بمرح :

«ما عاد البرد برداً كما عرفنا من قبل»

سكوت، والشوارع على مد النظر خالية من الناس إلا من دوريات مسلحة تمر بنا متيقظة وكان الأسفلت المحيط بالقلعة خاويا إلا من هدير تلك المصفحات تسرع فى حركتها وكأنها فى سباق مع ظلال الأنوار التى كشفت تاج القلعة الحجرى، وخيمت على الخندق أشباح تشبه حركة المياه فى بركه مقدسة، وكانت خطواتنا بطيئة، وكأنها نزهة فى مدينة مهجورة تثير حنين الذكريات فى قلب تعلق بها منذ قرون.

أقرأ أفكارها عبر جلدها المشدود على العظم، فأحس بالألفة مع التاريخ، كأنما ما مضى من زمن دخل عبر المسام إلى

النسيج الساخن تحت الجلد، فبات الجسد تاريخا. وتوقفت بنا الجدة عند المقهى الذى يشرف عليه مدخل القلعة الكبير، وكان مطفأ الأنوار لا يشير إلى حياة فيه، بعد أن كان رواده لا يخرجون منه قبل أن ينتصف الليل. قالت الجدة وهوب :

«كان الحكواتى هنا يسحرنا بقصصه. وأنا طفلة تعلمت أن الحكايات القديمة شىء لا يصدق، والآن عرفت أنها جديدة وكأنها حصلت لتوها»

أبو زيد الهلالى، ومغامر والبحار، والملوك الصالحون أو الذين صنعوا جبالا من عظام الناس، والعياق، والحشاشون يقتلون تحت لواء شريعة الموت من يخالفهم الرأى، وحكايا الغولة، وحرائق المغول والتتار تشتعل فى كل ما هو مكتوب أو جميل، وعنترة والأميرة ذات الهمة. وزفرت الجدة فجأة وهى تقول :

«لنعد يا أولاد، فالمدينة الليلة لا تسر»

كانت الأرض المحيطة بالقلعة قديما مسرحا للصبايا والشباب، يمرحون ويرقصون تحت ضوء القمر، والآن، وحشة تخيم على الأبنية التى خنقت القلعة، وظلمة باردة رغم أنوار الكهرباء البرتقالية. هتفت الجدة فجأة:

«متى الجمعة يا أولاد ؟»

غدا. فاستراحت، وكانت أنفاسها تتردد بالطمأنينة، ونحن نعود بها باتجاه الأنصارية. يوم الجمعة كان موسما لاجتماع معظم ما بقى من أفراد العائلة، وكأنه العيد. الباقون يتحلقون فى الدار، والجدة بيننا تتحرك بحيوية تأمر وتبتسم وتؤنب وتسأل وتحب وتعاتب..

وقد باتت ظلال الأنوار على القلعة فى تلك اللحظات، وكأنها مشاهد متعاقبة لما سيحدث غدا فى اجتماع الجمعة، فلمحت ليلى تلوح لى من السور فلا أعلم إن كانت ترحب بى أم أنها تشير إلى بالوداع ؟!.

* * *

- ٢٢ -

وكان قد حدث فى ذلك اليوم، حزن أثقل كتفى وأعشى منى العينين، وكنت فى عودتى من الكلية، أحمل نبأ اغتيال أستاذنا الذى أحببنا على يديه علم الجراثيم، فكان يتكلم عنها أحيانا بلغة الشعر وأحيانا بلغة السياسة وتارة على أنها جزء من الحياة. حدث فى ذلك اليوم وأنا أسترجع كلماته وتلميحاته وأتذكر قامته تتحرك خلف المنبر بحيوية الشباب، أن لمحت تلك المرأة بالغطاء الأبيض الذى يلف رأسها وتقف قابضة بكيفها على حديد الشباك متوسلة. كنت عند أول الحارة فتوقفت أتأمل المشهد العجيب، فالمرأة الأنيقة بقوامها الذى يذكر بربات الجمال لم تكن كمثل أولئك الذين يقفون عند القبلية يشعلون الشموع لأضرحة الأولياء ويهزون القضبان الحديدية يرجون تحقيق طلب أو أمنية. ثم أراهم أحيانا من ضوء الشموع أمام تلك الأضرحة أتوسل، كنت أعلم أنى أخاطب تاريخى الشخصى لاعظام أموات ساكنة فى قبورها بلا حراك.

وخيل إلى فى تلك اللحظات، أنى أعرف تلك المرأة اليائسة التى شع حزنها على جدار الأنصارية. وكان الفضول هو الذى دفعنى ببطء حريص منها لتتوسع ساحة الرؤية خطوة فخطوة، إلا أن وقع اقدامى على الحجارة السوداء كان على ما يبدو يصل إليها محذرا، فتطلعت نحو مصدر الفضول ليرتسم الخوف على وجهها واضحا، فأفلتت هاربة بخطوات غير متزنة، مالبثت أن تحولت إلى عدو سريع أطار الغطاء من على رأسها فبان شعرها الأسود متناثرا، بينما هى تنعطف فى زقاق جانبى. وكان الزقاق هو كل ما بقى من اتصال الشارع العريض، الذى شقته البلدية وسط الأبنية القديمة، التى سرقت حجارتها المنقوشة أو تحطمت تحت وطأة آلات الهدم الجبارة، التى عملت ليل نهار لتحديث المنطقة، فاختفت اللحظات المتحجرة من التاريخ وانتصبت ابنية ضيقة باتجاه السماء، وازدحم الشارع باتجاهيه بالسيارات والشاحنات الصغيرة التى ترسل ضجيجا متقطعاً فى الليل والنهار وعند واجهة الجامع المملوكى الناجية من أظافر الآليات، استقلت المرأة سيارة فضية قادتها بحركة جنونية وانطلقت بها، دون أن أدركها أو أستطيع أن أتأكد من معرفتى لها.

أقسمت لأحمد أنى أعرف تلك المرأة، ولكنى لا أستطيع أن أسميها، فقال بصوت خفيض بعد أن استمع إلى طويلا أروى له تفاصيل تلك المطاردة المثيرة :

«لابد أنها حنان»

وتذكرت آنذاك كل شيء أنها حنان عمة أحمد. حنان أصغر بنات العم مصطفى التى اختفت تماما من حياة الأنصارية منذ سنين طويلة. وفجأة وجدنا الجدة وهوب فوق رأسينا، تمسك بهما وتداعبنا كحيوانين أليفين، فلبثنا صامتين.

«ماذا تخبئان من أسرار؟»

هذا ما قالته الجدة، ثم جلست على البلاط بيننا، وتمتمت :

«تخفون على أسراركم، أيها الخبثاء»

ثم تطلعت إلى أحمد، ومسحت بكفها على وجهه :

«حزنك، لا يمكن أن تخفيه على أحد. عيناك مليئتان بالحزن»

فأطرق برأسه، ثم تحرر من كفها بعد أن وقف على ساقيه كشجرة :

«حنان .. عمتى حنان»

فتبادلت النظرات الغريبة معه، وأكمل هو :

«أحس بأنها باتت قريبة منا»

«أهى تطرق الباب الآن»

«قد تطرقه بعد فترة، وقد لا تفعل»

بعد قليل هتفت الجدة بفرح، فبدت صبية كليلى، حتى أن صوتها دخل قلبى كالفولاذ الحنون وهى تردد :

«هل عادت .. هل عادت ..»

ثم بانكسارت غير مألوف في صوتها :

«الضالة عادت»

فلم أفهم شيئا من قولها، ولكنى أحسست برغبة هائلة فى أن أعثر على العمة حنان. قالت الجدة فى الصباح ونحن نشرب التمر هندى مع ماء الزهر :

«يجب أن تعود .. حنان يجب أن تعود»

كان أحمد ذاهلا لا يتحرك كما رأيته يوم خرج من المصحة ورغم تواتر أصوات الرصاص والقنابل، فقد ظل هادئا مستسلما لأفكاره التى لم أفهم عنها شيئا بعد. تطلع إلى صدر الليوان بحسرة. كانت تجلس هناك وشعرها الأسود يغطى ظهرها فيظهر وجهها الصبوح المستدير كقرص القمر. واحدة من عجائز العائلة كانت قد علقت فى رقبة حنان حجابا قديما أضافت إليه حجراً أزرق وفصين من العقيق جاءت بهما من

أرض الحجاز المباركة. وقالت لحنان آنذاك:

«نبعد عنك الحسد والعار»

فجأة صاح أحمد من قلق لم يطق عليه صبرا :

«دلنى على عمتى حنان»

وتمتم بانكسار :

ولقد كان البحث عن حنان مستحيلا. ابتدأنا من موقف سيارتها أمام الجامع الباقى منه واجهته العارية. نظرنا إلى اليسار باتجاه قلب المدينة. قال أحمد ملهما :

«لنبحث في الفنادق الكبيرة. أعرفها، فهى عمتى تحب العز والدلال».

وفى الفندق الثالث من برنامج بحثنا عثرنا على اسمها فى سجل النزلاء.

ولا أعلم حتى هذه اللحظة سبب صواب رأيه، لكنه قال إن الناس يدلونك على أنفسهم ولا يلزمك من أجل ذلك سوى الصفاء. وفى الفندق العريق ونحن نقف فى البهو المضاء بنور هادئ تنزل علينا سكينة وسعادة، قال أحمد :

«ألم أقل لك ؟»

ولكن انتظارنا للعمة حنان، طال. كنا نجلس فى الردهة

نغوص فى المقاعد الجلدية التى فقدت لمعانها. وكان الصمت هو الذى أحالنا إلى تمثالين من جمود الانتظار. قلت بعد فترة :

«ماذا نفعل عندما تحضر ؟»

فهتف بحرقة وقد تحرر من استسلامه :

«آنذاك يكون العتاب واللوم لائقا بنا كأحفاد للجدة وكأفراد من عائلة الأنصارى».

ومع ضربات الساعة القديمة التى أشاعت الرنين المهيب، بدت فى المدخل كأبهى ما تكون المرأة. ممتلئة قليلا وكأن سنين البعاد أخرجتها عن نحافة نساء الأنصارية، وقد ارتدت ملابس توزع عليها لونان جميلان، الأبيض والرمادى فبدت أكثر شفافية. فى كل الأحوال لم تكن لتشبه كثيرا تلك المرأة التى تستند بجبينها إلى قضبان طاقة المزار وتتمتم بشفاه متوسلة، ولكنها كانت هى رغم كل شىء. ووقف أحمد على قدميه فوقفت. التقت عيوننا بها فتلون وجهها المستدير، وعضت على شفتها السفلى، فتذكرت ماضيها كله. وتقدمت العمة حنان من موظف الاستعلامات لتتسلم مفتاح غرفتها، ثم نظرت من جديد إلى أحمد الذى وقف قريبا منها ثم تقدم خطوة فتقدمت. وتبادلا نظرة خاطفة كأنها الومض، ثم ضمها إلى صدره بشوق غريب، فضمته هى إليها

بشوق أكبر وأجهش الاثنان فى بكاء صامت.

وكـان الفندق القـديم تفـوح منه رائحـة الأنصـارية فى تلك الثوانى الخاطفة، وقد ظهرت جماليات متناثرة على الحيطان والأرض وفى الأركان المظلمة والمضيئة. تمنيت أن تكون ليلى معنا للترحيب بعودة حنان إلى الدار التى اشتاقت إليها واشتاقتها.

قالت لى ونحن فى طريق العودة تحدثنى، وعيناها تخرجان من المرآة نبضا :

«عندما رأيتك فى أول الزقاق، خفت أن تعرفنى. وعندما لحقت بى، عرفت أن الصغير بات شابا، وأن ذاكرة واحد من أبناء الأنصارية أقوى من كل شىء»

وتمتمت بخجل مسموع :

«لحقت بك لكى أؤكد لنفسى أن إحساسى لا يخيب بالأهل»

سألت عن العائلة فردا فردا، وعندما يغيب عنها اسم أحد، كان أحمد يذكرها به ويشرح لها عن أحواله إن كان مازال باقيا على قيد الحياة. كانت تتلون مع أخبار العائلة، فمن تهلل إلى تجهم إلى عبوس فحزن عميق عروق يديها ففقدت السيطرة على نفسها. قالت ببساطة لم نتوقعها :

«لم أسمع نصيحة الجدة وهوب فتزوجت من أجنبى، مالبث أن هجرنى وترك كل شىء..»

ثم ضحكت بعصبية وهى تتفادى رجلا مرق مسرعا عبر الشارع فكادت أن تصطدم به :

«لم يكن له وطن ليحس به .. أما أنا فقد كان لى وهجرته» .

واعقبت قبل أن تصبح الأنصارية أمامنا خلف المنعطف :

«عشت وحيدة، ولكنكم كنتم عزائى فى غربتى»

قال أحمد الذى كان بقربها يتطلع إليها بحب :

«ما عدت وحيدة»

وفى الليلة التالية أكملت لنا الحكاية التى ظلت حبيسة صدورنا، أنا وأحمد والجدة وهوب .

* * *

- ٢٣ -

وبات لحنان فراش فى غرفة أحمد. كانت غرفة العائدين صغيرة ولكنها اتسعت لعواطف صادقة تكبر يوما بعد يوم كبالون تتحرك أحشاؤه باتجاه الجدران تملأ الفراغ. وفى تلك الليلة جلسنا نحن الأربعة على المصطبة. فجأة لوحت الجدة بعصاها فى وجه العمة حنان دون كلمة، ثم مالبثت أن أشارت إليها بأصبعها، فاقتربت حنان التى تدثرت بواحد من شالات الجدة، وكان عناقاً وصلتنا حرارته فلفحت وجهينا بالتورد وكأنه التأثر.

كانت حنان الابنة الأخيرة للعم مصطفى، قد اختفت أخبارها تماما عن الأسرة منذ زواجها الخاطف، حتى إن مصرع والدها لم تدر به إلا بعد حين، لكنها أحست به فى لحظته، وخزتها إبرة فى جنبها إذ كانت تتقلب فشعرت بالألم يثقب خصرها، وعلمت أن شيئا ما قد حدث. كانت وحيدة فآنسها القلق والحزن الخفى، وعندما علمت بالواقعة تحول القلق إلى ذنب والحزن بات جوهرة

تحرص على الاحتفاظ بها فى الأعماق.

هتفت إنها طالما جاءت المدينة خلسة لتطوف بالأنصارية من كل أطرافها، ولكنها خشيت أن تظهر نفسها مرة فتطرد. وقالت إنها ليست المرة الأولى التى تقف أمام طاقة المزار تمسك بحديدها متوسلة. كانت تتوق إلى العودة، ولكن الغفران لم يكن لها مؤكدا. وقالت الجدة وهوب فجأة:

«أين الأولاد يا حنان؟»

فأطرقت العمة، وكان الخجل أبرز ما فى جبينها. أخذهم معه، فى خدعة ورحل إلى بلاد بعيدة، فتمتمت الجدة بأسى :

«فقدنا اثنين من العائلة دون فائدة، والخطأ كان فى البداية هو الاختيار»

واتجهت إلينا بصوت نافذ :

«هل رأيتم يا أولاد ؟ لا يمكن بناء أسرة فى أرض غير ثابتة».

فتنت حنان بالإيطالى الذى جاء منقبا عن الآثار فى حوض النهر المجنون. بين الماء والصحراء نصب خيامه بحثا عن التاريخ، وكانت حنان طالبة فى السنة النهائية من دراستها الجامعية حين وقعت فى شباكه. سحرتها الأسرار، وكأنما

أبحاثه كانت تجرى فى قلب الأنصارية، فحسبته ينقب فى أعماقها فأحبته. وبدا للجميع كغاز يريد اغتصاب التراب فقاومه العم مصطفى رغم أن الإيطالى أشهر إسلامه وحفظ من القرآن جزءين كاملين كان يرددهما بمناسبة وغير مناسبة، كما أن الجدة وهوب رفضت فكرة الزواج، آنذاك حزمت العمة حنان أمرها وهربت مع الرجل إلى دمشق، فانقطعت أخبارها عن الجميع.

هناك بقيت وحيدة بعد أن هرب الإيطالى بولديه إلى أمريكا بحثا عن المال والشهرة، وصعب على المهجورة أن ترجع إلى الأنصارية بفشل تنبأت له وهوب.

واضطرت العمة حنان أن تفعل أشياء كثيرة لكى تعيش وقد فقدت كل مورد.

عملت صحافية باسم مستعار، ولم ترد عنها ود رجال مهمين التفوا حول جمالها وانفتاح شخصيتها الآسرة. آلمها الانزلاق، ولكن الخوف من العودة كان أقوى.

«أخجل باهتمام رجال أقوياء من كل نوع، ولكن الرعاية كانت مزيفة».

«لم تكن رعايتهم تمت إلى الأخلاق بصلة، وكنت أريد أن

أعيش»

وهتف أحمد بحماسة من يستكشف حقيقة غابت عن العقول:

«استكملي دراستك يا عمتى»

فنظرت حنان إليه بدهشة يخالطها حيرة، وعندما دقت الجدة وهوب بعصاها على الأرض كمن يؤكد على كلام أحمد، نظرت إليها حنان بتساؤل يدور فى العينين الحائرتين، فوجدت بعد ومضة خاطفة طمأنينة أعادتها إلى حيويتها السابقة.

وقد أنكرت ليلى العمة حنان فى بداية الأمر، ولكنها جعلت تستعيد الصور السابقة فاحتضنتها بلهفة غلبت لهفة الآخرين. وكانت صيحة ليلى الفرحة بعودة حنان، بداية لما بقى من الأسرة أن يتقدم الواحد تلو الآخر ليسلم على الغائبة العائدة. فرحب أبناء الأنصارية بها وكأنها تعود من انتصار عظيم متناسين أيام الماضى. وقد شغل أحمد فى الأيام التالية، بالحفر على باب القبو الشرقى مرحبا بالكلمات المورقة بعودة الجميلة حنان إلى أحضان الأنصارية.

وها هو ذا الهدوء يتحرك فى الدار. بتنا خمسة من المقيمين بصورة دائمة فأحببت الرقم. وحملت حنان منذ البداية قليلا من عبء والدتى، فاختصت هى بوجبتى الغذاء والعشاء تقدمهما لها

بيدها، إلى جانب الاهتمام بالأزهار والنباتات الخضراء فى الحوش الداخليه. ولم يمض وقت قصير إلا وعادت إلى دراستها بهمة طالبة صبية. وكانت دراسة اللغة العربية التى هجرتها فى أشهرها الأخيرة، قد رجعت إليها وكأن السنين الطويلة لم تبعدها لحظة عن حب الشعر القديم، فكان المتنبى بصوتها العذب يصلنا أن تستذكره وكأنها هى التى ألهمت به، وتحرك المعرى على لسانها حكمة لا يمكن فى لحظات خاطفة إلا أن تكون من اختراعها هى .

ونتحادث أنا وأحمد عن حنان فى كل مناسبة. كنا نعجب من أمرها كيف أنها لا تذكر زوجها فى حديث أو إشارة، كما أنها لم تأت على ذكر ولديها، وإن كان الحزن الخفى ينضح أحيانا من جلدة وجهها فيزيدها توردا. وعندما يتقاطر على الدار أبناء الجيل الجديد من الأسرة يلعبون فى أرجاء الدار ويمرحون بضوضاء تملأ كل زاوية، كان وجهها يلتهب بالحمرة فلا نعلم إن كانت الذكرى المعذبة هى السبب أم أنه حب الطفولة يشعل الدماء فى أوصالها.

وتقول حنان، وهى تسعى وراء الأغصان الميتة فى الأشجار تقصها :

«فرحنا نحن أهل الأنصارية مثل أحزاننا»

ورغم ما كان يدور من أحداث فى الخارج، فإن صوت الرصاص وانفلاش القنابل فى الأسماع، لم يثر مرة ذعر حنان، إذ ظهرت منذ الأيام الأولى وكأنها تحمل الكثير من الصفات الوراثية للجدة وهوب.

وكان اشتداد وطأة الفوضى التى عمت المدينة، قد دفع بنا جميعا إلى تغيرات متسارعة لم تكن فى حسبان الزمن الذى أخذ شكل الأنصارية، فأصبح المكان زمنا، وبات الزمن مكانا. ولكن الحب الذى يختبئ لحظة بعد لحظة فى الأعماق، لا يجد له مكانا أو زمانا. وكثيرا ما كنت أفكر فى العمة حنان التى أتقنت فن دفن المشاعر فى العمق، كيف أنها الجديرة بحفظ السر الذى ضاق به الصندوق المختبئ عند أقدام أضرحة الأولياء..

القسم الثانى

- ١ -

طالت فترة الربيع الساخن، فانتشر الذباب والبعوض فى غير أوانه، وارتسم الذعر فى العيون وخيم التخوف من التنقل بعد غياب الشمس وبدت المدينة فى هذه الأيام كقرية كبيرة فى موسم الحصاد أيام الملكيات الفردية حيث لا راحة فيها إلا خلف الجدران. وانتشرت أخبار الموت، لتجمع الناس إلى أهلهم ينشدون التآلف والمودة التى هربت من علاقات البشر. وبتواتر أخبار الاغتيالات ما عدنا نعرف من سيأتى دوره، كما أن النسيان كثيرا ماكان يلف ذكر من يقتلون، فبات الاهتمام بالحياة متجليا بالحرص والإقبال على الطعام والتسلية.

وبعودة حنان إلى الأنصارية، ازداد الاهتمام بمتابعة برامج التلفزيون الذى طالما أهمل. ودفعتنا الأحداث إلى تنظيم حياتنا اليومية وفقا لتوقيت الشاشة الصغيرة.

وكثيرا ما كان أحمد يحتج على الوقت المهدور أمام التليفزيون فيسحبني نحو الكتاب للدراسة، إلا أن هذا لم يمنع من استسلامه معى لبعض البرامج المسلية، فلا نسلم من تعليقات العمة حنان بسخريتها المحببة وهى تراقب عيوننا المعجبة بمغنية رشيقة. لقد ساد المرح بوجود حنان رغم كل الغم فى المدينة. وأما الجدة وهوب فكانت تقطع جلساتها أمام الشاشة بين حين وآخر لتتجول فى أرجاء الأنصارية كحارس لا تغفل له عين. وفى ذلك المساء، بلغنا صوتها كسكين شق جوف الليل، فساد صمت متنبه، هرعت بعده مع أحمد نحوها، وقد انفجر بداخلى إحساس بأن اللحظات القادمة تحمل المفاجآت بل الأخطار ..

كان صوت الجدة، حين وافانا حادا ينادى :

«أحمد .. أحمد»

وعندما بلغنا الفناء الخارجي، تطلعنا إلى القبور العالية الثلاثة، فكانت أشباح ملفحة بالعتمة تنتصب واقفة، بينما الجدة وهوب التى بدت هادئة تتكلم بصوت عميق :

«لاتخافوا .. فأنتم فى الأنصارية»

وأصبحنا مع الجدة ثلاثة، نقف فى مواجهة الثلاثة الغرباء.

وحاول أحمد أن يتجاوز الجدة باتجاه الأشباح، ولكنها منعته بعصاها، وتابعت تقول :

«من أنتم ؟» :

ثم أعقبت بتوجس :

«إذا كنتم من اللصوص، فعودوا من حيث أتيتم قبل ان أغاقبكم بعصاى هذه»

وتقدم غريب يلف رأسه «بالجمدانة» التى ساهمت مع الظلام فى اخفاء معالم وجهه. لم يتكلم بادئ الأمر ولكن بندقيته القصيرة برزت مع يده . تأمل المكان بحركة دائرية، ثم هتف بصوت جاف :

«هل للدار باب آخر يطل على القلعة ؟»

فلم تجبه الجدة على سؤاله، بل هتفت هى أيضا بعناد جاف أيضا :

«من أنتم، ومن علمكم انتهاك حرمات البيوت ؟»

وبتعال صاحت :

«ألم تسمعوا عن الأنصارية ؟»

وتقدم الغريبان الباقيان بأسلحتهما، وقد ظهر واحد منهما وقد طوق خصره بحزام من القنابل. وظهر المشهد وكأن معركة

مـا سـتلتـهب بين لحظة وأخرى. لم نشـعـر بالخطر من كل تلك الأسلحة التى يحملها الغرباء، ولكننا تهيبنا الموقف فأمسكنا بأنفاسنا. كذلك لم يتفوه أحد من الطرفين بكلمة.

وتوجـهت لمبة النيون التى تحـاذى العريشـة بالنور فـجـأة، فانتفض الغرباء فى مكانهم يوجهون أسلحتهم علينا وقد لمعت عيونهم بخوف واضح. وكانت العمة حنان هى التى أرسلت بالنور فانكشف الموقف تماما، وتقدمت بجرأة كبيرة وهى تخاطب الجدة :

«من هؤلاء الغرباء ؟»

كانت تضع يدها خلفها فى جيب الجينز، وهى تخطو نحونا باستهتار كامل بالغرباء، فانبرى أحدهم، وقد بدا أنه أكثرهم حدة، وتطلع بغضب إلى العمة حنان ثم تبادل النظر مع رفاقه وهو يردد :

«أستغفر الله العظيم»

لم يكن بالإمكان أن أفعل شيئا، كذلك أحمد الذى اتسعت حدقتاه وكأن خطرا داهما يتربص بنا. قال واحد منهم وقد خفض سلاحه كما فعل رفيقاه :

«قد يداهمكم رجال الأمن فى أية لحظة، فقولوا إنكم لم تروا

أحدا ولا تعرفون شيئا»

تذكـرت ابن العم مـاهر فى تلك المسـافـة من الزمن التى قطعتـهـا آخـر كلمـة من الرجل إلى أذنى. تذكرته وأنا أعـالج جراحه، تفكرت به وبجماعته التى أقابل رجالا آخرين منهم وجها لوجه، حزنت لموته ولاعتقال والده العم سفيان ثمنا لانتسابه لهذه الجماعة. تمنيت لو أنى أقدر على محاورة هؤلاء فى أمور كثيرة طالما دارت فى ذهنـى خلال تلك الأحداث المتـعاقبة على المدينة، لكن الأسلحة السريعة الطلقات والتى برزت من بين أيديهم لغة جديدة لم آلفها من قبل، جعلتنى أكثر تعقلا، فآثرت الصمت.

وكانت العمة حنان مازالت تقف باعتزار يضيف إلى جمالها نكهة، وبينما يتصاعد الدخان من سيجارتها بهدوء، ادركت سر غضب الغريب المفاجئ فى استـغفـاره الحـاد. ويبدو أن لبـاس العمة وثقتها بنفسـها كانا السبب فى ذلك الغضب. وقد تأكد لى حدسى عندما هتف أحدهم :

«من هذه المرأة السافرة ؟»

فتبـادلنا النظر فـيمـا بيننـا بدهشـة، وكـأن ذلك المصطلح بات غير مـألوف لدينا فاسـتعيد فـجأة على مسـامعنا. وقالت الجدة بصرامة :

«حفيدتنا أيها الشاب»

وأضافت بعد برهة تتحرك باتجاههم :

«اخرجوا بسلام»

ثم أشارت بعصاها تنحو الشرق :

«تجدون بابا هناك يخرجكم إلى القلعة»

وفى لحظة أشار الى أحدهم أن أمضى أمامهم أدلهم على الباب، فمضيت وحيدا يتبعنى الثلاثة بحذر شديد.

كان ما يجرى فى المدينة من عنف وفوضى، قد شغل تفكيرى شهورا طويلة، فلم أستطع أن أتخذ موقفا محددا سوى الاشمئزاز من ذلك القتل الذى لا جدوى منه سوى الألم والخوف والشك. ودار فى ذهنى أكثر من مرة أن أتوقف متوجها بالسؤال إلى اولئك الذين مشوا خلفى صامتين لا يسمع منهم سوى وقع أحذيتهم المطاطية على بلاط فقد نعومته. وبدوت لوهلة وكأنى سجين اقتاده الحراس إلى الزنزانة. وعند الباب الخشبى البطىء الحركة، غمرنى أحدهم بنظرة شكر انتزعت عدم الشعور بالطمأنينة الذى تولد تجاههم منذ اللحظة الأولى. ولم يستغرق انسلالهم من الباب وقتا، شعرت بعده بفراغ، فتطلعت إلى الخارج لأجد جسد القلعة مسترخيا فى عتمة ردتنى إلى الداخل.

هو باب الهرب الذى يستخدم فى القرن الواحد مرات قليلات. ولا أذكر فى طفولتى أن أحدا استخدمه، ولكنى سمعت الجدة مرة واحدة تحظر علينا استعماله، فهو يذكرها بهرب الأبناء من الأنصارية أما لملاحقة أو لخروج لا عودة بعده، وهى لا تحب للدار أن يكون لها أكثر من مدخل. ورغم أن ذلك الباب، يطل على الخلاء الفسيح، وكثيرا ما فكر الرجال به وسيله لاختصار الطريق أيام الجنازات، إلا أن الجدة لم تسمح أبدا بذلك، وكانت على ما يبدو تفضل فتحة واحدة للدار الكبيرة لها عين عليها لا تغيب.

وكانت الليلة قد طالت بنا، ونحن نتحدث عن الغرباء الذين تسلقوا الجدار كما قالت العمة حنان، أو أنهم دخلوا الدار عن طريق القبلية كما حسب أحمد، إلا أن الجدة وهوب هزت برأسها معارضة كل الظنون وقررت أن الرجال الثلاثة دخلوا الأنصارية عن طريق البيت المجاور الذى هجره، أصحابه منذ زمن إلى الخارج، وهى تظن أن تلك الدار مهيأة لتكون وكرا يتجمع فيه جماعة الرجال المسلحين، لذا أمرت أن نبدأ منذ الصباح بمد الأسلاك الشائكة على السطح الذى يفصلنا عنها.

واستطاعت الجدة أن تدير الحديث باتجاه الهجرة ومساوئها،

وكانت قد علقت على ذلك باستنكار رسمته على طرف أنفها، فتذكرت ليلى وهى تعبر عن استيائها من أمر ما بنفس اللغة التى لا تنسى.

* * *

- ٢ -

طرق الباب فى الصباح الباكر. رددت جدران الأنصارية صوت الجرس يرن متقطعا، فكنت أول المستجيبين للنداء. لففت كتفى ببطانية صوف فبت كحاج يسعى فى خط مستقيم. وعلى الباب كانت المفاجأة أقوى من أن تحتمل. ليلى وقفت مرحة تبتسم كعرق الريحان الندى. تطلعت إلى بود عاتب كمن تقول، ألن تفسح لى طريقا للدخول ؟

ولحقت بها وهى تقفز كالسنجاب وتقول :

«رائحة النوم مازالت تخيم على الدار»

وجعلت ترسل بفمها أصواتا كما يفعل مسحر رمضان

«اصح يا نايم .. وحد الدايم»

كانت البرودة تلسع، ولكنى شعرت بدفء عظيم يهجم على فرتين عنى الغطاء، واستسلمت لهواء الصباح البارد. قلت لها متشجعا :

«يا للمفاجأة ... كيف وصلت»

ثم بشجاعة أكبر :

«صباحنا اليوم جميل»

فقالت ليلى وهى تقطف وردة تفتحت فى غير أوانها :

«جئت أشرب القهوة معكم، قبل أن أذهب إلى الكلية»

وكنت أعلم أن الدراسة لن تستأنف اليوم فى الجامعة، فتفاءلت بحجتها، وبنيت عليها آمالا كبيرة.

ولم تدعنى أصنع القهوة، فقد تسللت بخفة إلى المطبخ، لتعود بعد قليل وصينية القهوة تغطيها براعم الياسمين الذى أزهر مبكرا فى هذا العام. وجلسنا على المصطبة وحيدين، وكأن نداء الصباح أو ضجيج ليلى لم يصل بعد الى النائمين، فكانت سعادتى تملأ حنجرتى بالصمت الذى يجاهد كى يخرج من جلده كلمات تلاحقت فازدحمت فانحبست فى الصدر.

وكانت ليلى تتكلم بمرح وحيوية عن الطريق الموحش الذى سلكته من بيتها إلى الأنصارية ولم تخف. ثم فجأة قالت :

«رأيت حلما البارحة، فقررت أن أطمئن. كان الحلم مخيفا»

تمتمت قائلا إن الجميع هنا بخير، ولم أعرج على حادثة الغرباء بكلمة. سألتنى عن الدراسة وعن أحمد وحنان. ثم قامت كالفراشة أصابها النور بالحركة، فجعلت تتنقل حول القبور

كراقصة وتكرر وكأنها تستعيد أغنية مفضلة : .

«لا أعرف لم أحب الأنصارية؟»

ثم بأسى عابر أوقفها عن الحركة :

«لم تركنا الأنصارية، وفى المكان متسع للجميع؟»

واستعادت حيويتها من جديد، فتطاير شعرها وهى تقفز بخطوات رشيقة كما كانت فى طفولتها تفعل. وكنت أراقبها باستمتاع، فإذ بها تشبه الجدة فى أى مكان من زواياها المختلفة. الصوت والقدرة على الخطوات الواثقة الابتسامة التى هى الوجه الآخر من التصميم، تمنيت أن أهتف :

«أحبك .. أحبك» ولكنها ما لبثت أن هتفت باهتمام جاد وهى تنظر إلى بتركيز موجه :

«هل تعلم أننا مسئولون، أنا وأنت، مسئولية مشتركة»

فخفق قلبى . وتابعت :

«علينا أن نرتب أمر المكتبة الكبيرة. تصنيفها وتبويبها يحتاجان إلينا»

من يرفض مثل هذا العرض. هتفت :

«هل توافق»

فابتسمت، ولا أعلم إن كانت ابتسامتى هى الموافقة أم الفرح

العظيم. وهززت برأسى كطفل يطلب الرضى. آنذاك قـالت تتأملنى متفحصة :

«هل تعلم يا أحمد أنك تشبه جدنا الكبير أحمد»

واستطردت بحماسة وهى تنشر الياسمين على بمرح»

«لم نعرفه، ولكننى أحس بأنك أكثر الأحفاد قرباً منه»

فـارتعشت، ثم أحسست به، قلبى يصبح طائراً يرفرف فى الصدر الذى اتسع. ولولا مقدم الجدة وهوب علينا، لكنت قلت أشياء كثيرة.

كان صدر الجدة الذى يضم إليه ليلى رقيقاً، ولكن الترحيب بها كان قوياً، وكأن ذلك الصباح الذى سيكون بعد قليل بداية لأحداث جديدة، لم يكن كالصباحات الكثيرة الأخرى. لقد بدت ليلى ذلك اليوم فى حالة حب للدنيا وللأنصارية لا يميزها فيه شىء عن الجدة وهوب سوى قدرتها على القفز كطفلة خبيثة تقدر على إخفاء أسرارها مستترة بالمرح العابث.

وبعد قليل، كنا نشرب الشاى ونأكل الخبز الساخن مغمساً بالزيت والزعتر، بينما العمة حنان تغيب عنا قليلاً لتطعم الوالدة وقد باتت شبه مسئوله تماماً عنها.

ومع ان الاجتماع قد اقتصر علينا نحن الخمسة، إلا أن

صحن الدار بدا وكأنه يعج بكل الأبناء والأحفاد والزوجات، آنذاك هتفت الجدة :

«هل نستطيع أن نجتمع جميعاً ذات يوم، فتلتقط لنا صورة واحدة».

فقامت ليلى لتوها، لتقف أمامنا وتمثل دور المصورة التى تحمل جهازاً خاطفاً. كانت تتحرك برشاقة فى كل الجهات وكل الزوايا تقلد حركة التصوير وصوتها، بينما نحن نصفق ونضحك ونهلل ونسرق القبلات من وجه الجدة التى تألقت فى جلستنا كأميرة لا ينازعها الملك أحد. ومع أنى بدوت أكثر مرحاً وضجة، إلا أن عينى كانتا مشغولتين بالبحث عن أوجه الخلاف بين الجدة وليلى، فلا أجد سوى السنين.

كانت الجدة إذا مالت إلى الهدوء، تحركت ليلى كنحلة. وعندما تبتسم الجدة بمرح، كانت ليلى تلبث ساكنة ترقب حركة الجدة وهوب بسعادة. كأننا فى تلك اللحظة وكأنهما تكملان صورة جو من الانسجام لا مثيل له. وكان هذا الصباح يبشر ببدايات جديدة لم تدخل فى حسابات التنبؤ أو التخيل. كانت حنان مشرقة أيضاً دون أى أثر لماضيها عليها، وتفنن أحمد فى استعراض قدراته التى لم أكتشفها تماما فى التعليق الذكى على

كل ما يجرى فى هذا الصباح الجميل.

وها هى ذي لحة الفراق تحل فجأة. وقفت ليلى فى مواجهة الليوان، وقد قسمتها الشمس إلى نصفين، فزاد وجهها إشراقا، فلامستنى الشمس رغم أنى كنت فى الظل. كانت عيناها نصف مغلقتين، وخداها متجمعتين فى ضحكة آسرة. قالت العمة حنان وهى تقبلها :

«إذا جاءت ليلى غدا وأشرقت علينا مع الصبح، فسأحكى حكاية لن تنسوها» وما إن أكملت جملتها حتى دوت فى الأرجاء أصوات الرصاص وكأنه ينبجس كالماء الهادر من كل ناحية من نواحى المدينة. من طرف القلعة ومن السوق العتيق ومن الحى القديم المجاور، فارتفعت رؤوسنا جميعاً نحو الأعلى تستقطب باهتمام مذعور ضجيج السماء.

وتطلعت إلى أحمد فنظر إلى لنهرول فى لحظة نحو الخارج، بينما نداء الجدة يلاحقنا آمراً بالعودة ولكننا على ما يبدو قررنا أن نستكشف ما يحدث. ومن فرجة الزقاق برزت مؤخرة مصفحة تحف بها أقدام الرجال بأحذيتهم المطاطية، فعلمنا أن الخطر يزحف باتجاه الأنصارية أيضاً، بعد أن حسبناها بعيدة عن كل شىء يسبب الخوف. وكان أول ما تبادر إلى ذهنى فكرة

بقاء ليلى معنا، فغلبت الراحة التى سكنتنى كل المشاعر الأخرى.
وأمام مدخل الأنصارية، أطل من مدخل القبو الذى تسكنه عائلة سودانية منذ عشرات السنوات، العجوز الذى لم يعرف له مهنة سوى بيع فستق العبيد، فأشار إلينا بالدخول فوراً. كان الذعر يلون وجهه الغامق بالاصفرار، فأدركنا أن الأمر من الخطورة بمكان، فتراجعت مع أحمد خطوة، ولكنى ما لبثت أن هتفت بالجار مستفسراً، فكانت شفتاه تتمتمان :

«تفتيش .. تفتيش ..»

ثم تكرر إطلاق النار يختلط بأصوات المايكروفونات تعلن من جديد عن وجوب التزام الناس بيوتهم لا يغادرها أحد.

عدت إلى الداخل فرحاً، بينما كان أحمد واجما ترتسم الكآبة على وجهه، وكأنما تلك الطحالب التى تتسلق أحجار القبو والجدران قد غطته أيضاً. ثم تكرر إطلاق النار، فجمدنا جميعاً عند مواقعنا. كنا نعلم أن منطقتنا على أقل تقدير ستخضع للتفتيش الدقيق كما حدث للمناطق الأخرى، وهذا يعنى أياماً من البقاء فى الدار. وما إن هدأت السماء التى كانت تعكس صوت الرصاص، حتى هتفت بمرح :

«يبدو أن ليلى قد جاءت إلى المصيدة بإرادتها»

فلم تعلق هى بكلمة، بل نظرت إلى بعتب يخفى ابتسامه ذهبت عندى وكأنها إشارة تفصح عن حب خفى. ولكنها ما لبثت أن قالت بعد قليل :

«ضاع منى درس التصميم»

فضاعت الابتسامة فى تفسير مخالف تماما لما اعتقدته منذ لحظات.

وقامت الجدة من مكانها لتضرب الأرض بعصاها بقلق ظهر فى تكرار النقر المتواصل. تطلعت إلى، ثم ما لبثت أن اتجهت إلى أحمد الذى كان مازال مطرقاً والقلق يحيط به كهالة : سألته عن الرصاص، فتمتم بحزن :

«يبدو أننا يجب أن نستعد لحصار طويل»

ثم أكمل، وقد بدا كشيخ حكيم :

«من الذى يحاصرنا حقاً، رجال بأسلحة رسمية، أم أنهم أولئك الذين يتحركون فى الظلام ؟»

هتف أحمد بحيرة :

«ما عدت أفهم شيئاً. من هو الذى على صواب ؟»

صاحت الجدة وهى تمضى نحو الداخل :

«نحن الذين على صواب يا ولدى»

* * *

- ٣ -

كنا قد تجاوزنا كل المخاوف والتحسبات التى قلبتنا وقلبناها على كل وجوهها فى الساعة الأولى منذ ذلك الصباح. غمرت الشمس الفناء فلمعت خيوطها ليظهر كل شيء وكأنه يبتدئ زمنا جديداً. لبست ليلى ثوباً من أثواب الجدة وهوب وحزمت شعرها بمنديل لم أشاهده من قبل، وقامت مع العمة حنان بفتح ورشة كبرى لصنع الفلافل التى أقرت الجدة إعدادها خشية أن يكون الجنود القادمون جائعين. وبينما ليلى تقشر البصل والثوم وحنان تجرش الفول والخبز اليابس، كانت الجدة وهوب قد دخلت القاعة المجاورة للباب الداخلى، بينما وجدت مع أحمد عملاً فى تنظيف البركة الصغيرة من أعشاب وطحالب تجمعت من سنين سابقه، وقد شمرنا عن سيقاننا وغصنا فى الماء اللزج بأقدامنا لا نحس بلسعة البرد الخفيفة. كنا نستشعر الطفولة بإخلاص دافئ.

كأن الحياة القديمة عادت بأنسها إلى الأنصارية، ونحن

الفريق الذى كلف بمهمة إعداد الحفل والاستقبال. كأيام الأعياد يتوزع العمل على الجميع ليقوموا به بسعادة ورضى. وهتف أحمد منادياً ليلى، فنظرت إليه بعينين دامعتين وهى تحاول أن تمسح أنفها بكمها، وتصغى له :

«يا حضرة المهندسة، متى ستجدين الوقت لوضع المخططات اللازمة لترميم الليوان ؟»

وأضفت هاتفاً :

«والدار الداخلية أيضاً»

ثم تخيلت أن الأمور ستستمر هكذا إلى الأبد، فاستبسلت فى تنظيف البركة كما لم يحدث مثل هذا الأمر من قبل.

وخرجت الجدة بكتاب بيدها من القاعة، قالت لنا إن الأوان قد حان لقراءته.

«تاريخ البلاد، أريد أن أقرأه»

هتف أحمد فى الوقت الذى كنت أمد يدى نحوه، لكن الجدة قالت :

«عندما يعود الهدوء إلى المدينة، يمكن القراءة بفهم. ألا تفهمون يا أولاد ؟»

قالتها بمرح، ثم تطلعت نحو البنات لتجدهن منهمكات فى

العمل، فحملت كتابها .ومضت إلى القاعة من جديد. وهتفت العمة حنان :

«يبدو أن ليلى ستشاركنى الغرفة اليوم»

وصاح أحمد :

«سأنام تحت السماء»

وقلت لنفسى :

«أرجو أن يدوم هذا الحصار إلى الأبد»

ليتها تعود، تلك الأيام الخوالى. ليت الطفولة تعود ونتمدد متقاربين تحت لحاف السماء.

كانت الأسابيع الأخيرة، قد منعتنى تماماً بأحداثها المضطربة من كتابة رسالة واحدة إلى ليلى، لذا فإن صندوق أسرارى الراقد الآن تحت أقدام الأضرحة يشكو من قلة اهتمامى به، فازداد حنينى إليه، وتمنيت أن أخلو بنفسى أقرأ رسائلى المتراكمة. وكنا نسوى التراب حول الأشجار، حين هتف أحمد فجأة :

«انظر .. وتأمل»

فاتجهت بعينى إلى ليلى التى تسترخى متعبة على كرسى الجدة، وتابع هو هامساً، وقد خيل إلى أن كلماته الغريبة لم

تخرج بمثل تلك الحلاوة من قبل.

«أليست رائعة مثل الجدة وهوب.»

فاحمرت أذناى، وملت على الرفش أغرسه فى التراب الأحمر الذى كان هشاً بفعل الرطوبة.

وتصاعدت رائحة المقلاة، فتمنيت أن آكل قرصاً ساخناً من يد ليلى، وإذ بها تنادينى كى أتذوق من يدها ما صنعت، ففعلت والدهشة تجتاحنى. هل ابتدأ زمن الاستجابة للأمانى؟. ولم ينقذنى من الدهشة تلك سوى دعوة أحمد لى أن ألحق به إلى القاعة، حيث لمع زجاج واحد من نوافذها بنور خافت. وتسللنا إلى الداخل لنرى الجدة وقد انكبت على قراءة أوراق مختلفة الأحجام وقد فرشت على سطح الطاولة التى استخدمها أكثر من جيل وفرد فى دراسته أو أعماله. كان نور اللمبة يعطى ظلالاً انعكست على وجهها الصارم فبدت كقائد انهمك فى دراسة خططه الحربية المعقدة. لقد ظل استخدام تلك الإنارة سائداً فى هذه القاعة منذ أن احترقت الاسلاك الكهربائية بفعل الرطوبة والقدم. وكانت الكهرباء قد أدخلت إلى الأنصارية قبل أن تدخل أى دار فى الحى أو ربما فى المدينة نفسها، وكانت الجدة وهوب هى التى ألحت على إنارة الدار بالكهرباء، وهى بنفسها التى

أشرفت على تمديد الأسلاك وتوزيع اللمبات، وظلت تردد طويلاً كما روى الآباء والأجداد، وبات أمثولة بيننا :

«نحن بحاجة إلى ما ينير أبصارنا وبصيرتنا، لكى تكون الحياة أفضل».

وكانت وقفتنا خلف الجدة محسوبة، فلم تخرج عن أى منا حركة. لبثنا خلفها نحدق فى تلك الأوراق التى ظهرت لنا كخرائط قديمة تمزقت أطرافها ومسحت بعض معالمها وقد أصاب حريق حواف أوراق منها. وقد أحست بنا على ما يبدو فتنحنحت، إلا أنها لم تغير من جلستها وظلت تحدق فى الخرائط مستخدمة بين لحظة وأخرى عدسة مكبرة تعاين بها بعض الإشارات أو المواقع.

لم يتجرأ أحدنا على طرح سؤال واحد عما تفعله الجدة فى تلك الجلسة. ظلت تقلب فى الأوراق، وتقرب واحدة من أخرى، ثم تعيد ترتيبها أو تصنيفها، ثم قالت بعد وقت طويل :

«رسمها من الذاكرة والتخيل جدكم أحمد»

وأعقبت بعد لحظات وهى تتطلع إلينا وتعود إلى خرائطها :

«لم يكن هناك مخططات للأبنية آنذاك»

وكان والد زوجها كما عرفنا، ضابطاً فى الجيش العثمانى.

وقبل أن يعدم بتهمة عدم الولاء للسلطان، كان قد حاول أن يدون معلومات مفصلة عن بناء الأنصارية، استفاد منها ابنه الذى أفاده تعلم الخط العربى فى رسم تلك المخططات .

وكثيراً ما فكرت فى أمر هذه الأوراق، واليوم أحس بحاجة إلى فك تلك الطلاسم، وهتفت بعد قليل :

«علينا أن نتعلم أسرار الأرض التى نقف عليها، والبناء الذى نعيش فيه»

ثم أضافت :

«لابد أن واحدة من تلك الخرائط، لها علاقة بالسراديب التى تمتد وتتشعب تحت بناء الأنصارية».

كنا نسمع عن تلك السراديب التى تربط القلعة بالأحياء القديمة، وبالمنافذ التى تؤدى إلى خارج المدينة. وكان أهل القلعة وجندها فى قديم الزمان، يستخدمون تلك السراديب للتموين فى أيام الحصار وللاتصال بالأعوان إذا ما ضيق الخناق عليهم والهرب وقت الشدة. ويبدو أن المدينة قد راعت ذلك الأمر عند بنائها للبيوت، فباتت هناك شبكة تحت الأرض وكأنها شوارع احتياطية لمدينة أصيبت فى طمأنينتها أكثر من مرة على مر العصور.

وقد ظلت الجدة فترة تسند خدها إلى يدها متفكرة فى أمر تلك المخططات، ثم تتطلع إلى ولا تلبث أن تنظر إلى أحمد، وكأن عقلها يختزن أفكاراً لم تجد الفرصة مناسبة للإفصاح عنها.

وعند العصر.، وبعد أن طال انتظار الجنود للتفتيش، أمر الجدة بفتح غطاء (الصهريج) الذى لم يستعمل منذ سنوات طويلة، وهو المستودع الذى كانت تخزن فيه المياه من أيام الشتاء لأيام الصيف. كانت النسوة فى العائلة عند موسم الأمطار، يقمن بغسل الأرض، ليسمحن بعد ذلك للأمطار بأن تنزل فى الصهريج وتتجمع فيه. وكانت ليلى التى بدأت بمعالجة الغطاء بالعتلة تبدو أكثرنا جدية فى معالجة الخشب اليابس بحنكة نجار خبير، بينما حلت الكآبة المفاجأة على العمة فتربعت على ا لأرض تدخن ساهمة. وأطل أحمد برأسه يستكشف جو الصهريج، ولكنه ما لبث أن تراجع ترتسم علائم القرف على وجهه.

«بئر أم مقبرة»

وقد وصلتنا الرائحة فأشحنا عن الفوهة، وهتفت الجدة وكأن الرائحة لم تصلها بعد :

«إذا نزل أحدكم ثلاثة أمتار ستكون أمامه فجوة، وهناك

سيجد سكناً مريحاً، ثلاث غرف على أقل تقدير، غرف صغيرة ولكنها كافية»

كانوا يستخدمونها أيام الأزمات، وأعقبت الجدة وهوب تقول: «كثيراً ما أوت تلك الغرف الهاربين من ملاحقة أو ظلم أو خوف»

كان الصهريج قد أهمل منذ زمن بعد أن دخلت الدار أنابيب المياه الرصاصية، فما عاد أهلها بحاجة كبيرة إلى الماء المخزون. وأبدت ليلى فجأة رغبتها فى النزول إلى عمق البئر، وعبرت عن ذلك بأن وضعت ساقها فى الفتحة، فما كان منى إلا أن صرخت بها أمنعها، ثم أعقبت بصوت متحفظ :

«لايمكن لفتاة أن تفعل ذلك».

فتمتمت الجدة وهوب بكلمات وصلتنا جميعاً :

«يخاف عليها ابن عمها ويحبها»

وكان ذلك التلميح المباشر، الأول من نوعه، فاصطبغ وجهى بخجل فاضح، ولكن ليل عندما هتفت :

«أليس ابن عمى».

«انقبض قلبى وتمنيت أن أسمع تعليقاً من نوع آخر. ولكن الراحة سكنت روحى بعد مدة، عندما دار حديث عن الهاتف

الذى فقد الحرارة، وكانت ليلى قد حاولت طوال النهار أن تتصل بوالديها ولكنها لم تستطع، فأحست أنها وقعت فى فخ القرب منى إلى الأبد.

ومن جديد، تدفق الماء الرقراق إلى البركة، فظهرت أرضها الحجرية للنظر كأنها صفحة عريقة من تاريخ ممسوح. كان تنظيفها شاقاً علينا ولكنه حرك الدماء فى العروق، وانعكست على صفحة الماء أضواء العريشة، فبانت البركة وكأنها سجادة ملونة أو أنها ثوب عروس من الأحياء التي لم تنس بعد ماضيها، وكنا نجلس نحن الخمسة عند الضلع القبلى للمربع ونسند أقدامنا على الحافة المخورة ونشعر بالألفة. الجدة فى مركز الألفة تحيط بها ليلى وحنان بينما أحطت وأحمد بالجميع وعاد الحديث إلى السراديب.

كانت ليلى قد حاولت بعد العصر أن تقرأ فى الخرائط، ولكنها لم تستطع أن تصل إلى نتيجة ما، واعترفت فى النهاية أنها ما زالت فى السنة الأولى من الهندسة، فحاولت من طرفى أن أشد أزرها بكلمات تشجيع، إلا أنها قالت بصوت يشبه الجدة الغائبة حتى قلت إن تتفاخر بشىء لاتعرفه»

ثم قالت للعمة حنان :

«لقد بقيت معكم، فهل أنت ما زلت متمسكة بوعدك فى حكاية لن ننساها؟».

«شيء ما تنساه المرأة، وهى تندفع أمام رياح الحب الموسمية» هكذا ابتدأت العمة حنان سهرتنا بعد أن قادت الجدة بنفسها إلى غرفتها إذ أبدت الرغبة فى القراءة وحيدة، وكان كتاب التاريخ السميك يثير اهتمامها فى الأيام الأخيرة .

قالت العمة حنان :

«هل تعلمون يا أولاد ؟ لعنة تحل على من يعقد قرانه دون مباركة الأنصارية، ودون أن يقف على بلاطها العتيق هذا».

وكان ثمة رصاصات تنطلق بين حين وآخر، فلا تعكر صفو جلستنا تحت الدالية، وقد تلفح كل منا ببطانية خفيفة، فبدا منظرنا وكأنه لكتيبة من الجيش متعبة، إلا أن كؤوس الشاى الخمرية منحت الجلسة وثيقة عائلية تدل على التماسك والحب.

«ما الذى يجذبنا نحو الغرباء؟»

ثم أكملت العمة حنان :

«هذا ما تساءلت عنه يوم وجدت نفسى وحيدة، فكان لى عزاء واحد : أن أقف عند سور الدار وأشم رائحة الحجارة. وإذ أشعل شمعة فى شباك القبلية، تنهمر دموع الندم. ماذا فعلت

بنفسك يا حنان يا امرأة بنت وهوب ؟»

هتفت العمة بصلابة وراثية :

«تربة يزرع فيها الغريب ويحصد، ثم يهرب بزرعة بعيدا .. بعيداً»

وكانت تتبادل النظرات مع ليلى التى تصلب وجهها، فما عاد يعرف الانفعال. وأكملت :

«فى البداية نحس بهم، أولئك الغرباء، إنهم يحملون الدهشة إلينا، فنسلمهم دهشتنا»

وقالت ليلى وهى ترمى البركة بلا شىء من كفها :

«هل تكرهينه ؟ أقصد هل تكرهين زوجك السابق ؟»

فابتسمت العمة حنان، ولكنها ما لبثت أن هتفت :

«حتى تلك اللحظة التى عدت فيها إلى الانصارية. ثم تحول الماضى إلى تجربة تنفع من أجل المستقبل. لا، إنى لا أكرهه، وما عدت أعرف شيئاً عن ذلك الذى يأكل القلب».

وتطلعت العمة حنان إلى ليلى فجأة

«هل تعرفين الكراهية يا ليلى ؟»

وإذ تفاجأ ليلى، تشد البطانية على جسدها بحركة لا مبالية، ثم تهز رأسها بالنفى. وكأن النفى كان قاطعاً إلى درجة خلت

أنها تريد أن تقول «من يحب لا يعرف الكراهية».

هل بت حقاً أتخيل عنها عواطفها بعد أن كنت لا أجرؤ على شيء سوى البوح لنفسي بحب لا أعرف له تسمية .

* * *

- ٤ -

كان الفجر بداية لنهوضي من الفراش بعد أن استعذبت التحديق لفترة في الظلام خلال ليلة ساكنة. وتركت أمي وأحمد الذي شاركني الفراش، وتسللت إلى الخارج أستنشق الهواء البارد الذي حمل إلي رائحتها تختلط بالياسمين والنارنج.

ليلى لم تفارقني في ظلمة ليلتي، ظلت تحوم حولي كتعويذة تطرد عني ألم السهاد والأرق، فاستعذبت تلك الساعات الطويلة وشكلت ليلى كما أريد. وعندما قبلتها، لم أجرؤ على تجاوز كفيها بشفتي المرتعشتين، وكأنني أقبل الجدة وهوب شكراً أو طاعة في مواسم الأعياد وأيام الأحزان، إذ كنا ننكب على كفيها نقبلهما بالتناوب وكأنما نستغفر عن الراحلين ذنبهم في أنهم خلفوا الألم والوحشة في قلب جدتنا الصابرة.

تأملت البركة الصافية، فأحسست بالأيام القادمة تحمل بشائر السعادة، وكأنما الأعشاب والطحالب التي جمعناها من البركة إيذاناً بالتخلص من ذكريات وأوهام عشناها فعششت

فى القلب فأخذت منه شيئاً من الفرحة. وها هو ذا الصفاء يعود، ويصبح الماء مرآة ترتسم عليها الأحلام، فخرجت ليلى متمطية كوردة تتفتح أكمامها مع دفء الندى، وعلمت أن الحياة بدأت تقلب صفحتها لى، تخيلت الجدة فى صباها، وتمنيت لو أنى عرفت جدنا الكبير أحمد. هل كان منطوياً على نفسه مثلى؟ وجعلت أفكر بالانطواء.

ياللرفاق فى الكلية. تعجبت لجرأتهم فى اقتحام مخاطر النساء والحب. بينهم كنت صامتاً، أحاول ألا أتورط فى الكشف عن سرى الدفين. وكانوا يسخرون منى أحياناً فيقول خبيث منهم :

«وماذا يقول العذراء فى هذا الأمر ؟»

فأبتسم غير مكترث بكل تعليقاتهم العدوانية. وقالت ليلى بصوت متكسر :

«صباح الخير يا أحمد»

فأحببت اسمى، وكأنه اخترع لتوه فلم يكن من قبل اسماً لأحد غيرى. أحسست به وكأنه صفة من صفات الحب، أو أنه لقب لعاشق أسطورى

«صباح الخير يا أحمد»

ثم صححت جملتى بهدوء مقتضب :

«صباح الخير يا ليلى»

وكنت أتساءل فى سرى إن كانت ليلى تعلم شيئاً عن ذلك الفيض النورانى الذى تشع به فى تلك اللحظات أعماقى. أليست تملك القدرة ؟ هى تملكها ولا تريد أن تفصح عن قدرتها. وتشاغلت بمسح ثمار النارنج المتدلية من الأغصان المرنة بكفى. قالت ليلى :

«لابد أنك نمت بعمق»

فابتسمت وأنا أتقدم منها خطوة :

«يبدو أنك أنت التى نمت بعمق»

تمتمت بصوت مسموع وهى تتجه نحو الليوان :

«مع الأحلام المزعجة لا يعتبر الإغماض نوماً»

ثم جلست على الحافة وجعلت تتفحص المكان مقطبة، وكأن شوقاً بداخلها إلى الدار استيقظ من جديد، فارتسم الحنين على وجهها ابتسامة غامضة.

وها هى ذى الدار تستيقظ. ماءت القطط، وكان الكنارى قد باشر غناءه منذ مدة، وحط الحمام الأبيض على الأشجار، ولكنه ما لبث أن طار تفزعه طلقات الرصاص المتجددة، بينما فشل

أحمد فى أن يشق لنفسه طريقاً خارج الدار فعاد متحسراً وهو يقول:

«لن يكون لكم خبز ساخن فى هذا الصباح»

وعلقت ليلى ضاحكة :

«وجهك لا يضحك للرغيف السخن»

آنذاك أمرتنى الجدة بإخراج كيس الدقيق من القبو، وقالت للصبيتين الجملتين : «العجين من حصتكما يا حلوات»

وقالت لنا نحن الرجال :

«وأنتما يا أحمدان، من نصيبكما التنور»

ولأول مرة منذ فترة طويلة، نفضنا غبار السنين عن الفرن القديم وأشعلنا فيه الحطب اليابس. وفى ذلك اليوم قالت الجدة وهوب مرة أخرى :

«ليكن خبزنا كثيراً، فقد تستهدى رائحة الخبز الطازجة جوع الجنود» .

ومر اليوم حافلاً بالانتظار والتوقع وأصوات الرصاص المتفرقعة، وبالألفة أحياناً تجمعنا على عمل أو تفرقنا على مزاح. وجلسنا بعد الظهر على الأرض تحت الدالية نلعب (البصرة)، ليلى وأنا فريق

والعمة حنان وأحمد فى الطرف الآخر، بينما الجدة وهوب التى بدت نشيطة فى حركتها، فقد كانت تنتقل ما بين قاعة المكتبة والقبو والغرف الخربة. ظهرت ونحن نراقبها بين حين وآخر كقائد يستوثق خطوطه الدفاعية. ولكن الجدة رغم انشغالها، كانت عندما تمر بنا تعلق على اجتماعنا بحب ظاهر ما بين مداعبة أو تحريض فريق على آخر.

ليلى بقربى. ليلى تشتعل حماسة إذ نكسب دوراً، وتنتفض غضباً إذ نخسر فتصب اللوم على، فتغمرنى سعادة فليلى شريكة فى الربح والخسارة وأما العمة حنان فقد لمعت عيناها بالتعاطف إذ تنظر إلينا، فداهمنى الخوف من أن تكون قد كشفت الأوراق. وتبين لنا فى تلك المقامرة البريئة أن أحمد يملك من الدهاء فى اللعب مالا يعادله سوى تلك الدقة المرهفة فى التعليق على ما يجرى خلال لعبتنا الطويلة، ولكن أذنيه كانتا كالرادار حين ينطلق الرصاص فى الخارج، فيتوقف لحظة معطياً كل أحاسيسه لما يدور فى الحى، ثم ما يلبث أن يعود إلينا بابتسامة رقيقة، كأنه المجرب الذى يريد أن يخفف عن الجلسة آثار العنف فى المدينة .

وجمعتنا الجدة وهوب فى المساء على علائم الجد ارتسمت

على وجهها :

«ليلى وأحمد، مسئولان عن إعادة ترميم الأنصارية»

وقالت وظل حنين يرتسم على وجهها :

«تصورت اليوم، لو أنهم عادوا جميعهم للإقامة فى دارهم، كيف نستطيع استقبالهم. أبناؤنا سيعودون ذات يوم، فكيف تستقبلهم تلك الأماكن المخربة»

وتطلعت إلى ليلى بحزم تحول إلى حب :

«متى تستطيعين يا صبية أن تضعى المخططات اللازمة لإعادة تعمير كل شىء؟»

ثم عادت إلى حزمها فهتفت بقوة :

« لا تتعللى بأنك مازلت مبتدئة. أنت ابنة الأنصارية، ألست؟»

فجأة، أشارت الجدة وهوب أن تدثرها حنان بساعديها ففعلت، ولكن الرعشة الطارئة لم تتوقف فى الجسد الناحل، فتنبهت كل الأنفاس لتتوقف لحظة تراقب شيئاً لم تألفه من قبل. آنذاك قفزت ليلى كمهرة، لتعود بعد لحظات بغطاء صوفى لفت به الجدة وهوب، وكانت هى تلك المرة الأولى التى أشاهد فيها الجدة تقاوم ضعفاً مفاجئاً بارتعاش لم تستطع إخفاءه. وتبادلنا النظرات القلقة فيما بيننا، إلا أن الجدة سرعان ما شدت عودها

واستوت فى جلستها، وقالت تتابع حديثها وكأن شيئاً لم يحدث من قبل :

«أريد أن يطل علينا الربيع القادم، وقد رمم كل شىء فى الأنصارية. أما كفانا ذلك الخراب يا أولاد.»

آنذاك هتف أحمد :

«وأنا أليس لى دور ؟»

فتطلعت الجدة إليه تتفحصه بدقة، ثم قالت وكأنها تصدر قراراً ثابتاً .

«مثل عقلك لا يستغنى عنه يا ولدى :»

ثم هتفت بى وكنت ألاحقها بعينى :

«كن لليلى يدها اليمنى واليسرى أيضاً، فأنتما متشابهان فى تعلقكما بالأنصارية» وكان لملاحظتها وقع الصاعقة فى قلبى، ولكن الليل الذى باعد بينى وبين ليلى، حرمنى من أن أستطلع وقع الكلام عليها، إلا أن السعادة المضطربة لم تستطع أن تحرمنى من نوم عميق .

* * *

- ٥ -

أحلام .. أحلام، والانصارية تعود إلى زمن الاحجار اللامعة والمرمر يكسو الارض يعكس النور عظمة وفخراً. بلابل ترشد المنشدين إلى عالم من الألحان التى حولت الليوان إلى معبد منفتح على كل المعتقدات التى قد تخطر على بال.

أحلام، ولكنها تصبح ريحاً باردة تلسع الوجه، وأنا أسرع قاطعاً الفناء بخطوات مضطربة، بينما لحق بى أحمد، فيما الطرق على الباب يستمر دون انقطاع. وكان أحمد هو الأسبق فى زحزحة المزلاج كى يفتح للطارقين.

أطلت فوهات بنادق من الفرجة، ثم لحق بها رجال دخلوا علينا متلاحقين كدعاء امرأة أصيبت بالحال. أحسست بجسدى يندفع إلى الوراء فردنى الحائط، وتدفق المسلحون يصطفون فى المدخل على درجات الحوش الخارجى. كانوا فى هذه المرة أكثر عنفاً ونزقاً، وبدا رئيسهم الذى لا يحمل رتباً على كتفيه أكثرهم هدوءاً وهو يقول :

«سنفتش المنزل»

قال أحمد متماسكاً رغم الاضطراب الذى هبت رياحه علينا :

«ليس هذا بمنزل»

فتساءل الرئيس برفع حاجبيه إلى أعلى، فأكمل أحمد :

«هنا الأنصارية»

الأنصارية. ما هى الأنصارية؟ هكذا تساءل الضابط بهدوء. آنذاك كانت الجدة وهوب قد وصلت، وجمعنا إليها جميعاً صوتها وهى تقول :

«ادخلوا فالدار أمامكم»

فتطلع الرجل باهتمام نحو الجدة، ولكنه ما لبث أن صبح عليها فردت عليه بوجه صبوح.

كان رئيس حملة التفتيش مهذباً عكس ما ظهرت عليه الملامح وهو يردد :

«نعتذر عن إزعاجكم فى هذا الوقت المبكر، ولكننا نبحث عن الأسلحة والمخربين»

ثم تساءل متفحصاً إن كان هناك من رجال فى الدار غيرنا، فقالت الجدة بوقار :

«الرجال الآخرون تحت التراب أيها الشاب»

وكان الضابط شاباً وسيماً، فاستنفر حاجباه الكثيفان وهو يتطلع بريبة إلى ما حوله، إلا أن الجدة سرعان ما أشارت بعصاها وإلى القبور العالية، فانفرجت أسارير الرئيس، ولكنه ما لبث أن تقدم من القبور يحف به عدد من رجاله، فألقى نظرة شاملة، ثم خلع قبعته احتراماً ووقف لحظات، ثم عاد إلينا من جديد .

غمرته آنذاك الجدة بنظرة فيها عطف واضح وتمتمت :

«أحسنت يا ولدى»

كانوا عشرة رجال من الجنود قد دخلوا الدار، وسمعنا تحركات الباقين في أرجاء الحارة. لم يداخلنى خوف ما. وعندما ظهرت ليلى تعلقت الأبصار بها، فردتها عنها بدهشة جدية بادرت الجنود بها، ثم تقدمت بثقة. ثارت أحاسيس غامضة في داخلى وكأنها قراءة الجدة على رأسى حين كنت أصاب بالحمى صغيراً فتجلس بقربى تتمتم فأحس بالراحة .

«أحمى حميساً، أطما طميساً، وكان الله رؤوفاً رحيما»

فتنبه الضابط الشاب إلي حركة فمى التى كانت تردد الدعاء، فاقترب منى ليفاجئنى بسؤاله : «هل أنت من أهل الدار» ؟

فلم أحس برغبة فى الجواب، آنذاك تقدمت الجدة من الضابط

ضاحكة، وقدمتنا إليه :

«أحفادى، هذا أحمد طالب فى الطب، وهذا أحمد يحفر على الخشب بمهارة، وتلك ليلى مهندسة المستقبل. وأنا وهيبة»

وابتدأت حملة التفتيش بأربعة من الجنود مشوا خلفى وأحمد. وكان الدخول إلى القبو الأول صعباً علينا ونحن ننزل درجاته مدفوعين بفوهات البنادق. كان أحد الجنود عصبياً، وعندما فشلت فى إشعال النور، سمعت صوت تلقيم بندقيته السريعة فى الظلام وكان يقول بنزق :

«أضيئوا المكان قبل أن أطلق النار»

ويبدو أن الرطوبة قد امتدت إلى الأسلاك فما عادت تنقل الكهرباء، فأسرع أحمد آنذاك إلى شمعدان قديم، مازال يحتفظ بقليل من زيته فأشعل الفتيل، ليعم القبو نور متراقص، زاد من الوحشة.

رأيت عيونهم تبحث فى كل مكان، ثم تقدم أحدهم من جرة كبيرة فى صدر المكان، نظر إليها، ثم تطلع إلى أحمد

«ماذا يوجد فى هذه الخابية؟»

قال أحمد ببرود :

«انظر فيها، تعرف»

وكان الجندى الشاب الذى يتصبب عرقاً رغم البرودة، قد تجاوز سخرية أحمد المبطنة، وغمس الحربة فى عمق الخابية وجعل يحركها كملعقة تبحث عن لقمة دسمة. فسمع صوت قرقعة شدت انتباهنا جميعاً إليها.

«ماذا يوجد فى هذه الخابية ؟»

وكان الشاب قد سحب سلاحه وأطل برأسه متفحصاً، ثم مالبث أن عاود تساؤله من جديد. وتقدمت مع أحمد يدفعنا الفضول لمعرفة ما نجهله، فأمرنا الجندى بأن نخرج محتويات الجرة فمرت لحظات من التردد، حسمها الشاب بمؤخرة سلاحه ضرب بها البطن الفخارية، فتهاوت الجرة قطعاً صغيرة اختلطت بعظام متباينة فى الشكل والحجم. جزء من قحف جمجمة وأفخاذ وسواعد وفقرات ظهرية. كأنما الجرة كانت مستودعاً لعظام ناس قضوا منذ مئات السنين. تبادلنا النظرات الحائرة مع الجنود، وقد خيل إلى أن أجدادى جميعهم قد مروا فى مرحلة تشابه مرحلة دراستى الهيكل العظمى. وصاح أحمد فجأة :

«بقايا ضحايا مجزرة اتسعت لها جرة واحدة.»

فلم يفهم أحد من الجنود ما يقول، وتابعوا تنقيبهم فى زوايا

القبو دون أى تعليق.

وكان الباب الخشبى الذى امتلأ سطحه الداكن بالمسامير النحاسية وأعشاش العناكب الصغيرة، قد استوقف الرجال، فلمعت فى عيونهم مشاعر انتصار وهتف واحد منهم بدت على لهجته خبرة فى التفتيش :

«أحدكما يفتح هذا الباب»

فى زاوية القبو كان الباب الخشبى واضح المعالم مع القنديل الذى قربه أحمد منه. وكان يبدو وكأنه قد خرج لتوه من أعماق التاريخ فلم يلحظه أحد من سكان الأنصارية من قبل. من جديد هتف الجندى :

«أحدكما يفتح هذا الباب» !

وقد خيل إلى أن الباب سيقود إلى شىء سيجر المتاعب. قلت ببرود :

«الباب مقفل منذ سنين ولن يستطيع أحد فتحه»

فهم واحد منهم عليه يحاول فتحه فلم يستطع، وهم عليه بسلاحه يعالجه فلم يفلح، آنذاك تقرر أن يلجأ إلى الرئيس لاتخاذ قرار بشأنه. وكأن حملة التفتيش جاءت من أجل الباب.

- ٦ -

كان الضابط قد ألقى نظرة خاطفة على مقر الجدة، ووقف عند المدخل، وكأنه لا يجرؤ أن يدوس ببسطاره البساط الصوفى الذى انتشر على الأرض يزهو بألوانه العديدة تكشفها الأنوار المتسللة من النوافذ العالية للغرفة. قال الضابط بشىء من التحسر :

«كان عندنا واحد منه فى الضيعة، ولكنه صغير»

بعد لحظة، وبينما يلقى الجندى التحية له، تابع الضابط :

«بعناه أيام الجفاف»

وكانت الجدة وهوب تراقبه باهتمام، فأحس بها فتماسك، ثم كانت للضابط فرصة فى أن ينتقل من حديث الذكريات إلى لهجة الأمر.

كان الجندى يبدى تخوفه من أنه قد عثر على مخبأ سرى؛ فعدنا من حيث أتينا، وقد تهلل وجه الضابط بنصر ماكر. هتفت الجدة بنا ونحن نسرع نحو القبو :

«حاذروا من أن تكسر جرة أو خابية»

وكانت العظام التى مازالت تتناثر فى أرض القبو، قد سحقت بعضها بالأقدام المسرعة. وحدثتنا الجدة بعد ذلك عن تاريخ تلك العظام التى تكدست ذات سنة فى زلزال ضرب المدينة منذ مئات السنين فتساقط القتلى من أهل الأنصارية دون حساب، لتجىء هى بعد ذلك تجمع ما وجدته من عظام فى كل مكان وتحفظها فى تلك الخابية التى حفظت من قبل طعاماً لأيام المجاعات.

وقفنا أمام الباب الخشبى الذى أحاطه الضابط بالنظرات الحذرة. قبض على مسدسه، وكان النور كافياً لرؤية التوجس الذى ارتسم على الوجوه. قال الرئيس ببطء :

«ماذا وراء هذا الباب ؟»

كنا نجهل سر الباب، لم تفلح القوة فى اقتحامه. وكانت مقاومة الباب سبباً فى اشتعال نار الغضب، وإذ يأمر الضابط بإطلاق النار على الخشب القديم، يتقدم أحمد طالباً الإذن فى معالجة القفل الذى استعصى على أية محاولة. وكانت يده تعمل بخبرة فى أطراف الباب، فإذ به يفتح ببطء كما فى الأساطير والحكايات. أزيز الباب نشر الخشوع فى القبو.

هبت نسمة باردة من عمق الظلام الذى انفرج عنه الباب.

قرب الجندى الشمعدان من الفجوة، ولكنه ما لبث أن تراجع يغالب خوفاً ركبه. وعلمت آنذاك أن الباب يقود إلى واحد من السراديب السرية التى تنتشر تحت أرض الأنصارية، والتى قد تقود إلى أجزاء كثيرة من المدينة. سأل الضابط :

«إلى أين يقودنا هذا الباب ؟»

كنت لا أملك غير التخيل فلم أشأ أن أفصح عنه، وكان أحمد يلتزم بالصمت الذى يشير إلى الحيرة.

وضحكت الجدة وهى تسأل الضابط الشاب :

«ألم يملك أحد الشجاعة للدخول فى ذلك السرداب ؟»

كان الجند قد أقلعوا عن فكرة الاكتشاف، وتوجه رئيسهم نحو صاحبة الدار يسألها عن سر ذلك السرداب. وتابعت الجدة وهى تصب للجنود الشاى بنفسها :

«للمدينة أسرارها. حمت نفسها على مر السنين بسراديب انتشرت تحت الدور».

ثم أعقبت بقولها الذى حمل الطمأنة :

«لم تستخدم تلك السراديب منذ عشرات السنين. باتت الأمور واضحة فى زمن النور»

ثم أضافت وهى تبتسم فى وجه الضابط الشاب :

«يا ولدى ...»

وجاءت حملتهم على الأماكن الأخرى سريعة. مرواً على غرف النوم الواحدة تلو الأخرى، وفوجئوا بأمى تتطلع إليهم بحنان وهى تستلقى فى فراشها الذى أخذ شكل جسدها على مر السنين، وما كان من الضابط الشاب إلا أن قدم اعتذاره بكلمات لم تفهم، وبدا وكأنه قد افتقد الحنان زمناً طويلاً.

كانت ليلى فى قاعة المكتبة قد عقدت المنديل على رأسها، وقفت على كرسى ترتب الكتب في الرف الذى تكدس عليه الغبار. فدخل عليها الشاب برجاله الذين باتوا أكثر هدوءاً من قبل. قال الضابط بتأدب :

«هل نستطيع أن نتفحص الكتب يا آنسة ؟»

فابتسمت ليلى وهى تتطلع إلى ثم إلى أحمد :

«تنتهى الفوضى فى البلد ولا تنتهون من تفحص الكتب»

وأضافت وهى تنزل إلى الأرض :

«أجيال كثيرة تعاقبت على هذه المكتبة، يضيفون إليها الكتب جيلاً بعد جيل»

ثم مدت ذراعها بكتاب كل جلده الأحمر، فتناوله الضابط منها بحرص.

وقالت ليلى :

«كنت أظن أن قـراءة التاريخ لا تعنى سـوى التـسليـة، ولكنى قـرأته منذ سنين فـعلمت أن المسـتـقبل لا يمكن أن تتصـوره من غير أن تعرف شيئاً عن أحداث الماضى» .

وقـررت آنذاك أن أقـرأ كل كـتب التـاريخ. وتطلعت إلى ليلى لأجدها أكبر منى بكثير، وكأنها شيخة حكيمة حافظت على جمالها الذى لا يغيب. وجعل الشاب يقلب الكتاب بسرعة وعيناه لا تنزاحان عن ليلى التى تقدمت منه بثقة لا يشبهها شيء سوى ثقة الجدة بنفسها.

«الكتب لا تشكل خطورة إلا إذا أسيء فهمها واستعمالها»

ثم قالت وهى تستعيد المجلد لتضمه إلى صدرها :

«لا تخافوا من هذه الكتب وغيرها. الخوف من الجهل هو ما يجب أن نفعله .. جميعاً» وأقسمت بينى وبين نفسى أن أحظى بحب ليلى ولو كان الثمن موتى. كانت ليلى كما لم تكن من قبل، كأنما كان علينا أن ننتظر حملة التفتيش تلك لنكشف عن عمق الصبية الذى بات مجهولاً منى كالسراديب نفسها .

* * *

- ٧ -

كانت أقراص الفلافل تسخن، وتروى الأرغفة بالطحينة المتبلة، وجعلت الجدة تقدم الطعام بيدها إلى الجنود الذين بلغت بهم الطمأنينة حد ترك أسلحتهم مسندة إلى حرف الليوان كالمكانس يوم انشغال النساء بالحديث، وجعلوا يأكلون بشره، بينما الرئيس يدخن مسندا رأسه إلى جدار قبر الجد الكبير يحدق فى السماء .

سمعت صوت ليلى يهمس في جسدى، وكانت صامتة تتعاون مع العمة حنان فى إعدا السندويشات كعاملتين فى مطعم. صوتها، وربما احتكاك يدها بالخبز والسكينة، كحجر الصوان تحتك قطعتان منه بعضهما ببعض فيشتعل الشرر. شيء لم أعرفه من قبل. كانت تجاربى الجنسية محدودة بالأحلام والمغامرات الصغيرة التى كانت تجرنا إليها حماقات الرفاق فى المدرسة أو الجامعة. تألقت الأنوثة فى ليلى، ويبدو أن الجدة وهوب كانت تشاركنى مراقبتها. لقد شخنا قبل الأوان فلجمت

الأحداث والمسئوليات فرح الاهتمام بالجسد الأنثوى، وها هى ذى الساعات المشحونة منذ الصباح بالتفتيش والأسئلة والشكوك، تدفع بالرغبات الجامحة إلى سطح العين، فتتحرك الشهوة كالضوء السريع الذبذبات. وجاء صوت الجدة ليضع حدا لكل التصورات العارية. قالت الجدة للضابط المستسلم لدفء الشمس وبرودة البلاط :

«إذا شئتم أن تتابعوا التفتيش»

فأشار الشاب إلى جنوده فانصرفوا إلى الخارج، إلا اثنان منهم بقيا حارسين عند المدخل الخارجى .

«الآن تذكرت». كذلك أتذكر أنا أيام الطفولة. الآن تذكر الضابط وكأنه يعثر على شيء أضاعه منذ زمن. قال للجدة وهوب التى كانت تصغى إليه باهتمام :

«الآن تذكرت أقوال جدى. رحم الله جدى مات على حماره فعاد به الحيوان إلى الضيعة. تذكرته وكان يحدثنا عن المدينة بإعجاب، فنحلم بها إلى أن قدمنا إليها فإذ بها الصخب والإرهاق والقتل .

كان الضابط الشاب كأيام الربيع، متلقب المزاج، تارة يمثل القسوة الجادة وتارة يصبح كصبى يحلم بالعطف. وكنت مع

أحمد والجدة وهوب الوحيدين نصغى إليه، بينما عادت ليلى إلى المكتبة وانهمكت العمة حنان فى تنظيف المقلاة والصحون والأرض التى حملت آثار الأحذية .

«الآن تذكرت حديثه. جمعنا تحت القنديل المعلق فى شجرة الجوز الوحيدة الباقية، وحدثنا عن دار عظيمة فى المدينة لا يمكن لأحد أن يتعرف إلى المدينة دون أن يدخلها. واسعة، فيها أشجار وكأنها الضيعة أيام العز، وفيها أسوار هائلة كأنها القلعة. الداخل إليها يسعد والخارج منها يشعر بالغربة والحزن. الآن تذكرت، فقد كان جدى، رحمه الله، قد دخل الأنصارية»

فجأة هتف أحمد بصوت أخفى حزنا :

«دخلتم معظم بيوت المدينة، فهل وجدتم شيئا»

«لا شىء يذكر»

هكذا أجاب الشاب، ثم أضاف وقد انقلب إلى ضابط صارم القسمات:

«تجد الجثث فى كل مكان، ولاتجد أحدا يعرف شيئا عن القتلة. أهو الخوف؟»

تمتم الضابط بكلمات واضحة :

«قتل من أصدقائى فى السلاح.. واغتيل رجال كثيرون، علماء

وآباء. وما عدت أفهم شيئاً عن حكمة القتل. وكان على أن أبحث مع رجالى عن المسلحين والقتلة، فلم أجد شيئا يفيد».

كان أستاذنا الذى اغتيل صباح ذلك اليوم، ماثلا بابتسامته أمامى. رأيته ينادى على ثم يغيب وراء القبور. يلوح لى بيده ثم يختبئ فى كتاب. يهرول كشاب مرح ثم يتضرج بدمائه على جذع شجرة الجوز. كان يكتب اسمه على القشور فتتساقط على الأرض .

حاولت أن ألملم الحروف فلم تسعفنى اللحظات. لم أجد سببا واحدا لمصرع رجل أحببته لأنه علمنى .

هتف الضابط الشاب بحرقة :

«لقد أثقلنا عليكم بوجودنا، ولكن ما باليد حيلة»

وتوجه نحو الجدة وهوب بوجه أثقله الإثم

«من يفتش دارك، كمن ينبش عن أخطاء التاريخ»

فصبت له الشاى وهى تقول :

«هذا الشراب من بقايا رجل حكيم مكث بيننا فترة من الزمن، ثم غاب كفص ملح».

وأعقبت مبتسمة :

«فقير من الهند طرق الباب، ولم يكن فى جعبته سوى كمية

من الشاى الأخضر. قال اشربوه فتصبح الحكمة بديلاً للحمق الذى يعيش فى عقولكم. غضبت منه لتوى ولكنى مالبثت أن رحبت به. ثم أدركت أن التأمل مع شرب الشاى يزيدنا حكمة» .

وقالت الجدة تستعيد سنين قديمة :

«كنت شابة فقدت رجلى، أحمل فى قلبى الغضب، ولكن الشاى علمنى أن أفكر طويلاً قبل أن أحكم على أى شىء. وهكذا فأنتم يا أولاد تعطون فرصتكم الأخيرة فى اكتساب الحكمة مع الكأس الأخيرة من شاى الهندى الطيب»

وران صمت. كنا كمن يتسابق على التأمل، وخيل إلى أن ليلى هى التأمل، وكانت عينا أحمد تبحثان فى القبور عن معنى للحياة، أما الضابط الشاب فقد أطرق . سألته الجدة :

«هل لك أولاد ؟»

«صغير مازال يجهل كل ما يدور حوله»

وكادت جلستنا تتحول إلى لحظات وداع، يتركنا فيها الضابط الشاب مخلفاً محبة معشوشبة تكاد تغطى على ردائه العسكرى، لولا أن ليلى خرجت من قاعة المكتبة تهتف بفرح طفولى :

«انظروا ماذا وجدت وراء الكتب؟»

وكانت يداها تحملان سلاحاً كبا لون نحاسه، توجهه نحونا وهى ترسل بفمها صوت إطلاق النار، فقفز الجنديان نحوها بسرعة أخافتنا، وحدث مالم نكن نتوقعه .

* * *

- ٨ -

ابتدأ التفتيش من جديد فى المكتبة. جعل الجنود يقلبون الكتب بعصبية. وكان رئيسهم الذى لمعت عيناه منذ قليل بالحب إذ تحدث عن ابنه الصغير، يراقب كل شىء بعينين ضيقتين تحملان بريق شر. ليلى خلف الجدة تحتمى بها وقد اختفت من وجهها براءة اكتشاف السلاح القديم. ولم تبد الجدة وهوب أية ملاحظة على فظاظة البحث ومعاملة الكتب بمثل تلك القسوة. تناول الرئيس كتاباً نما على جلدته السوداء الفطر الأبيض، وقلبه بين يديه، وكان يتمتم قارئاً :

«والحاجة أم ترضع الناس ...»

ثم تطلع إلى جندى انهمك فى معالجة الحائط بأظافره، ثم ما لبث أن هتف بانتصار :

«مخبأ سرى»

وما إن أكمل هتافه حتى تدفقت من فتحة منتظمة كخزانة سرية، أسلحة لف بعضها بالشاش الذى فقد بياضه، ومنها ما

بات متفحماً .

بنادق ومسدسات وبلطات وعصى برؤوس شوكية. نخيرة حرب ميتة. وقد نقل الجنود حصيلة البحث إلى الليوان، فوقف الضابط أمامها متأملاً وقد عادت إلى وجهه نضارة الألفة بعد أن فقدها لفترة قصيرة. تساءل عن مصدر تلك الأسلحة فردت الجدة :

«تاريخ الأنصارية والبلد ملىء بالظلم والعدوان، فهل يمكن لغير السلاح أن يضع حداً للظلم والعدوان؟»

وقال ممازحاً وهو يحمل بين يديه بندقية لا تصلح إلا للمتاحف:

«ألا يجوز لمخبأ آخر أن يحتوى على أسلحة فعالة؟»

كنا نتجه جميعاً نحو القبلية، نقف أمام الأضرحة. أشارت الجدة بيدها التى تأبطت الأخرى ذراع الضابط، نحو الضريح الأوسط الذى كان أكثر ارتفاعاً من البقية :

«لا نعرف اسمه على وجه التحديد، ولكنه واحد من أجدادنا الذين حملوا السلاح أو الكلمة للدفاع عن شىء له قيمة فى حياته. أصبح هو ضريحاً، وصدأ السلاح، ولكن الكلمة باتت باقية. ألا ترى أنها باقية أيها الشاب»

ثم أعقبت بتمتمات تشبه قراءة الفاتحة، فخشع الجميع للذكر الذى لم تفهم كلمة منه. ولكن الرهبة سرعان مازالت، حين قالت الجدة وهوب بمرح :

«لن تجد فى كل الأنصارية سلاحاً يستخدم لقتل الإخوة أو الأهل»

ثم انفتلت عائدة وكأنها لحظة الوداع للجنود الذين قدموا للتفتيش.

كان الجندى الذى يستند ببندقيته إلى البلاط قد تحسس شيئاً مريباً، فضرب الأرض بأخمص البندقية، ثم كرر فعلته، وكنت أعلم أنه يقف فوق صندوق أسرارى .

لم تتغير عادة إخفاء الأسرار منذ ألف عام. حفر فى الجدران أو ممرات سرية فى باطن التراب أو تحت الماء أو جيوب خفية تحت البلاط. الخوف دفع بالناس منذ مئات السنين إلى إخفاء أموالهم وعواطفهم. مثل الغرائز التى لا تتغير مع تعاقب الأجيال، وهكذا فعلت بالجانب الخفى من نفسى، دفنته فى حفرة سويت بعناية لتحتضن صندوق الأسرار. لقد انكشفت أسرار المدينة مع عمليات الهدم والبناء، ولمع الذهب واسودت الفضة وتآكلت الأوراق المالية وانفرط عقد الحلى التى خاف الناس

عليها، وها هى ذى حافظة ثروتى الجميلة تهتز خوفاً تحت وطأة البندقية .

قال الضابط متمتماً بكلمات الاعتذار عن الأسلحة التى وجدت بلا فائدة، وتقدمت ليلى بالنيابة عن الأنصارية تمد يد المصافحة، فنكس الشاب رأسه كقائد استسلم لهزيمته ولكنه حافظ على كرامته إلى اللحظة الأخيرة. إلا أن الجندى الذى مازال يقف فوق قلقى، كرر تحسس الفراغ الذى لمسه ببندقيته، ثم نظر بريبة إلى ما بين قدميه، وانحنى بقامته يمسح الغبار عن الحدود الفاصلة ما بين قطع البلاط. ولم يحدث لقلبى أن دق بمثل ذلك العنف، فالذعر. تراجعت خطوة، فانهمك جنديان فى زحزحة البلاطة، بينما انشد الجميع إلى المشهد الذى بدأت حرارته تتصاعد لحظة فلحظة .

قالت الجدة وهوب «ماذا تفعلون بالمرمر؟». وهتفت ليلى «لابد أنه سر جديد». ونظر أحمد إلى وكأنه يفهم كل ما يجرى ويدرك ماسيحدث. وكان سهلاً أن تنكشف لهم الحفرة تضم الصندوق الذى كان يوماً للجد الأكبر يضع فيه أوراق النسب الذى اختفى نحو نصف القرن ليظهر مع أوراق عن الملكية ووثائق أخرى، وجدت تحت سرير العمة عائشة. وكنت قد وجدت الصندوق

مهملاً فى القبو، فاجتذبتنى إليه رائحة الصندل الذى لا ينتهى طيبه وقد بطنت أخشابه جدران الصندوق، فكان حديدياً من الظاهر ورقيقاً من داخله، فحفظت فيه أسرار الحب الذى لم أخطط له يوماً أن يفتضح أمره. وعندما أصبح الصندوق بين يدى أهل التفتيش، تراجعت خطوة، فخطوتين. ثم سمعت خطوتى تركض، فسمعت صوت جندى يصيح :

«قف، قبل أن نطلق النار»»

ثم تناهى إلى سمعى صوت رصاصة، كأنما اخترقت الصندوق الخشبى الذى يعلو الضريح فتمزق القماش الأخضر لتستقر فى القلب .

- ٩ -

رقدت الجدة وهوب فى الفراش منذ ذلك المساء الذى غادرت فيه حملة التفتيش الأنصارية. ظلت صامتة لا تتحرك، وكأن الرصاصة التى انطلقت من بندقية الجندى أصابتها هى. وقال أحمد وهو يقبلنى للمرة العاشرة :

«كنت أقتلهم لو أن الرصاصة خدشت أصبعك»

ولم أستطع أن أنظر فى وجه ليلى، وإن كنت على يقين من أنها لم تعرف شيئا عن تلك الرسائل والصور التى قلبها الضابط بين يديه، ثم أعادها إلى مكانها، وأمر جنوده بالرحيل دون كلمة وداع واحدة. وبعد أن اطمأن على سلامتى من تلك الرصاصة الإرهابية التى لاحقت هربى المريب، خرج من الأنصارية دون أن يتطلع وراءه. ويبدو أن أحمد الذى عرف شيئا من صندوق أسرارى، قال برقة ولباقة لايمكن لى أن أنساها :

«أمرت الجدة بأن يعاد الصندوق إلى مكانه. عاد السر إلى

مكانه»

وقبلتنى ليلى فجأة، وكان الليل ساكنا، فاشتعل خدى. قالت بلهجة مازال الخوف يصبغها :

«لو أنهم أصابوك..»

ثم أمسكت، وهتف أحمد :

«لنحتفل بانتهاء يوم عصيب»

ثم أضاف بعصبية :

«لو أن المحنة تنتهى فى المدينة كما انتهت هنا»

تمتمت ليلى وقد استسلمت ليدى العمة حنان :

«كان حلوا على أن أصاب أنا لا أنت»

ولم تكن ليلى هى نفسها التى تتكلم. كانت الشىء الذى لا يصدق يجلس أمامى. لقد ذعرت لحظة امتدت أيدى الغرباء إلى صندوق أسرارى، ولو أنهم فعلوها الآن لما تحركت من مكانى وشاركتهم الكشف عن الرسالة تلو الأخرى، بل كنت أقرأ بصوت مرتفع كل كلمة حب وشوق وود كتبتها لليلى فى لحظات الرضى والغضب والحزن والفرح :

قال لى الضابط الشاب عند مدخل الأنصارية :

«لم تهرب وأنت لست مدانا؟»

«لم أكن أريد أن أحضر إدانتى أمام أحد»

هكذا قلت له، فابتسم فى وجهى وهو يقول :

«على كل، لم يقرأ أحد شيئاً من تلك الأوراق والرسائل سوى كلمات قليلة»

وتساءل فجأة :

«من هى وهوب .. من هى ليلى ؟»

تمتمت وأنا أطرق كمراهق خجول :

«هما حياتى ..»

كانت الوصية ترقد فى قاع الصندوق، فلم تلمسها يد. وفى الليل كنت أتسلل إلى القبلية لأراجع أوراقى، فظهر لى أن كل شىء فى مكانه لم يمس بسوء. وعاينت مكان الرصاصة، فشعرت بالأسى للصندوق الخشبى الذى يغطى الضريح المصاب، وأحسست كأن لدينا اليوم قتيلا جديدا فى الأنصارية.

قبلتنى ليلى من خدى، وبخرتنى العمة حنان إبعادا للشر عنى، ورحلت حملة التفتيش دون إساءة تذكر، ومر يوم حافل قد يكون من الأهمية كتلك الأيام المتفردة التى مرت بالأنصارية، وشعرت بأنى كبرت عشرة أعوام، وزال عنى شعور التخوف من أن تعرف ليلى شيئا عن الحب القارض كالعث يأكل صدرى .

وقفت فى العتمة وظلال الشمعة تتراقص فى الشباك تلعب بفتيلتها ريح الزقاق الصامت. لقد ألفت الأضرحة وألفتنى، ولكن التفكير بالموت هبط على فجأة فكانت رعشة تماثل تمايل ظلال الشمعة، قد دبت فى أوصالى. هاهم أولاء يصبحون ترابا، فهل نصبح ترابا دون ذكرى أو أضرحة. وما كان أمامى من وسيلة لاستعادة الثقة فى ذلك الليل الأشد سوادا من أى ليل آخر، إلا أن أستعيد قبلة ليلى التى امتزجت بها الأخوة بالمحبة بالحرص على. اقتربت شفتاها من وجهى مرة أخرى، مرت على جلدى المتحفز طلبا للاستغراق، ثم تمثل لى الموت الراقد فى الأضرحة، حكاية منسية هتفت بصوت خفيض أخاطب الأجداد:

«أحب ليلى، وسأحبها، ولن أكتب لها بعد اليوم رسالة واحدة، سأقول لها بنفسى أحبك، وستستمع إلىّ ...»

* * *

- ١٠ -

أفقت على خطوات أقدام متسللة. فتحت عينى، فشعرت بأوصالى جميعها تتكسر كأغصان يابسة. كانت العمة حنان التى ربطت فكها بمنديل أبيض تتكلم بصعوبة وهى تشير إلى أسنانها. وأطل أحمد علينا من تحت لحافه لايدلنا عليه سوى صوته، فقد بدا منتفخا ووجهه كبرتقالة ناضجة .

كنت قد أغفيت على الفراش دون غطاء بعد ليلة فى القبلية لاتنسى. وقال أحمد : «لا أعلم ما الذى جرى، ولكنها الحساسية على ما يبدو »

وكانت عيناه قد تحولتا إلى ثقبين صغيرين نظر بهما إلى العمة حنان ففوجئ بآلامها «ليس هذا وقت الأسنان»

وكان لابد آنذاك من أن أسكت على أوجاعى، وأقوم من الفراش متحاملا على نفسى .

هتفت حنان :

«لابد أن الجدة لديها مايسكن الألم»

«لم آكل أو أشرب شيئا يسبب مثل هذه الحساسية»

هكذا تساءل أحمد وهو يغادر فراشه، بينما كنت أحاول أن أكون مرحا بقولي :

«لابد أن التفتيش سبب لك تلك الحساسية»

وجلسنا نحن الثلاثة على طرف السرير الحديدى، تتدلى سيقاننا التى كانت تتحرك برتابة تعبر عن صمتنا الذى طال، ثم اختلط أنين العمة بآهاتى، فصاح أحمد :

«أهو الوباء؟»

وتطلع فى المرآة الطويلة التى تزينت أمامها معظم نساء الأنصارية، فرد مذعورا يحاول أن يغطى وجهه بكفيه، فانفجرت العمة ضاحكة رغم ألمها، وهتفت به : «سيلقون القبض عليك لتنكرك»

ثم تذكرت أوجاعى فدسست بنفسى تحت اللحاف مرتعشا .

هل احتفظت لنفسى بانفعالات خلوة الليلة التى مضت، أم أنه المرض الداهم، أو أنها محاولة من جسدى لاستعطاف ليلى كى تبقى يوماً آخر معنا؟ الأنصارية من غيرها يتيمة .

صحت من تحت اللحاف دون أن أتمالك نفسى :

«أين ليلى؟»

فوصلتنى أنفاسها التى سبقت خطواتها السريعة داخل الغرفة تعبر العتبة. سمعت صوتها تقطعه أشواك خوف أو ذعر، فكدت أنكره لولا أنها هتفت بضعف :

«الجدة وهوب»

ما الذى أصابنا حقاً ؟ البرد يطحن جسدى ووجه أحمد ينتفخ ويهاجم ألم الأنسان العمة حنان وتضعف ليلى، والجدة وهوب لا تريد أن تخرج من فراشها، وهى تقول لأول مرة فى حياتها :

«أريد أن أستريح»

هل تعبت حقا ؟ أم أنها اللعنة أصابت الأنصارية، فلم يبق فيها جسد سليم .

وكانت أصوات المايكروفونات تجلجل منذ الصباح منادية بانتهاء التفتيش. وقد رددت الصدى الجدران العالية. وتكرر النداء لكى يخرج الناس إلى أشغالهم وتعودالحياة إلى المدينة بعد طول عزلة وركود. واجتمعنا حول فراش الجدة وهوب التى كانت تنظر إلينا بضعف لم نألفه فيها من قبل، ثم لا تلبث أن تغمض . فلم يجرؤ أحد أن يسألها إن كانت مريضة حقا .

وبدا وجه ليلى أكثر تأثرا، ولكنها حاولت وهى تدلك أقدام

الجدة برقة أن تظهر تفاؤلا لم تكن قادرة على تصعيده، فظلت بين وجوم وابتسامة. وعلمت فى تلك اللحظات البطيئة أن شيئا ماسيحدث، فلم أتمالك نفسى وخرجت إلى صحن الدار أبتلع دموعا تحولت من العينين إلى الحنجرة .

لم أعد أشعر بذلك الوجع فى عظامى، كما أن العمة حنان رمت بالرباط من على خديها، وخفت آثار الحساسية من وجه أحمد، وأما ليلى فكانت تسقى الجدة بيدها النعاع الساخن، وكنا نحن الأربعة نتبادل القلق عبر العيون المشتعلة .

ودبت الحياة فى المدينة. سمعت أصوات السيارات تخترق الشوارع بجنون يعوض عن هدوء الأيام الساكنة. وأصغت الجدة بضعفها إلى حركة المدينة وكأنها قريبة من سمعها، فابتسمت، ولكنها لم تنطق بكلمة، فعلمنا أن الأمر حقيقى .

* * *

- ١١ -

قررت ليلى أن تبقى معنا فى الأنصارية، وأشعلت العمة حنان شمعتين أمام الأضرحة وجعلت تتوسل أن يحفظ الله لنا الجدة وهوب. وانطلقت مع أحمد إلى مبنى البريد نجمع الشمل بالبرقيات والهواتف إلى كل مكان داخل المدينة وخارجها .

هل اقتربت الساعة؟ أية ساعة !

هكذا ابتدأنا حوارنا وأقفلناه. وكنا نتحاشى أن ننظر فى عيون بعضنا البعض. احضروا حالا. هكذا كانت البرقية تكتب إلى الأحفاد والأقارب من كل الدرجات .

كنت أتساءل بينى وبين نفسى عن كلمة أجدها بدلا من «موت». فلا أجد. لم أكن أجرؤ على التلفظ بتلك الكلمة. وجدتها بلا معنى، بل فكرت فى إلغائها من قاموسى. وعندما فكرت بعقلية الطب، قررت أن أفكر بالضعف الجسدى الذى يمكن له أن يكون طارئا .

قال أحمد وقد جلس على سور الجسر :

«هل تعتقد أنها، أقصد جدتنا، تستسلم بسهولة لعارض طارئ؟»

ثم أجاب عن نفسه دون انتظار لكلمة أو جواب منى :

«لا أعتقد أن الجدة وهوب، تؤخذ بسهولة»

ثم لوح بقبضته خيل إلىّ فيها أنه يتوعد السماء :

«لايمكن أن يحدث ذلك.. لايمكن أن يحدث ذلك.»

كانت الحالة تسوء لحظة فلحظة، وعندما عدنا إلى الدار، لم نعد قادرين على إخفاء شيء مما عيش فى داخل كل منا. الخوف بات واضحا مثل الشمس. لقد فكرت لحظة رأيت الجدة وهوب تغط فى سبات عميق، أن أحرق كل بخور العالم من أجل أن تعود إلينا تمشى على قدميها تفتش وتلقى الأوامر. أمسكت بيد ليلى الباردة وتمتمت :

«هل هى مريضة حقا»

فأطرقت ليلى التى لم تفارقها لحظة، ثم تبادلت النظرات مع العمة حنان، و قالت هامسة :

«هل أخبرتم الجميع؟»

وأجاب أحمد وهو ينظر إلى الجدة من كل زاوية استطاع أن يتحرك فيها :

«أبرقنا إلى كل القارات، وهتفنا إلى كل مدينة»

قالت ليلى، وقد بدا أن صوتها لايختلف عن نبرة الجدة وهوب في إلقائها الأوامر:

«وهل أخبرتم أطباء العائلة؟»

من الأقارب والأحفاد، كان هناك مالا يقل عن خمسة من الأطباء فى أكثر من اختصاص، وكنت المرشح لأكون واحداً منهم، ولكن عقلى كان عاجزا عن تخيل عقار يخرج الجدة وهوب من ذلك الطارئ الذى لايسمى. وإذ حاولت أن أقلب صفحات الكتب بحثا عن شيء ينفع الجدة، رميت بالكتب بعيداً، واليأس من كل شيء يصبح حقيقة أؤمن بها .

خائفين جلسنا أنا وأحمد فى الليوان. قلقين أنا وأحمد مشينا فى الحوش، وقد بدأ الأحفاد فى القدوم إلى الدار. كانوا مطرقين فى دخولهم، فركبنا التشاؤم. قلت لأحمد :

«ما هو الموت؟»

«ماهى الحياة ..»

هكذا أجاب وهو يحاول أن يكشط آثار الطحلب من على بلاطة قرب القبور.

«ماهو الموت يا أحمد؟»

«عندك الإجابة، أفلست تعلم أكثر عن طبيعة الجسد والمادة؟»

ماذا أعرف وماذا أجهل؟ ماذا أخبئ وماذا أظهر؟ وقلت له بصوت اختنق فيه بكاء حاصرته بالإرادة التى يبدو أنى ورثت شيئا منها عن الجدة وهوب:

«هل هناك مساواة بين الذين نعرفهم فى قضية الموت»

فهتف بصوت مخنوق :

«لايمكن لها أن تموت»

ليلى لن تعرف الموت أيضاً. هكذا قررت، ولولا حرصى لهتفت:

«لايمكن للذين نحبهم أن يعرفوا الموت»

وقلت لأحمد الذى خبأ رأسه بين ركبتيه :

«هل يمكن لمثل هذا الأمر أن يحدث؟»

وكان يتمتم فتردد ساقاه صدى ما يقول :

«هل رأيت القلعة تموت؟ الكتاب لا يموت. إرادة الحياة لاتموت»

ووقف على ساقيه كمارد، وقد اعتلى قبر الجد الأكبر، وهتف بصوت خفيض امتلأ بالتحدى والتصميم :

«من يقول إن الجدة وهوب تموت، قلعت عينيه بأظافرى»

وفـجـأة، كنا نتطلع إلى مـصـدر الصـوت الذى انطلق خلفنا، فكانت ليلى طائشة الصواب، تهتف بنا أن نلحق بها، فركضنا كفأرين مذعورين يلاحقهما قط المفاجآت التى لا ترحم .

- ١٢ -

كـان النور خـفـيـفـا فى الغـرفـة، يخـرج من خلف طبق القش الذى صنعه أحمد لتزيين قاعة الجدة. وجلست العمة حنان على ركبتيها ممسكة بيد الجدة، بينما زاغت عينا ليلى وهى تشير إلينا أن ننصت إلى كلمات الجدة وهى تهذى، وقد تلون وجهها بصـفـار زهر اللبن الذى طالما عـشـقـتـه به كل غـرف وقـاعـات الأنصارية .

«تعالى يا عيشة، يا عيشة تعالى. لاتبتعدى يا صغيرتى. البركة مليئة بالنجوم المحرقة».

لقد بات مرض الجدة وهوب حقيقة، ونسى الباقون أوجاعهم. وازدادت الحركة فى الأنصارية، يأتون ويذهبون، وكنت مع أحمد نتناوب الإعلان عن حالة الجدة الصحية ساعة فساعة. وأما الليلة فكان صوت الجدة فى هذيانها يدخل العظام فيطحنها .

«قولوا لعيشة أن تأخذ المئزر المقصب ليوم زواجها/ لاتنسوا الصابون المطيب لكفن الشيخ أحمد/ الكافور لوحده يسبب له

السعال/ لايمكن لنا أن نحبهم ولو قدموا الشوكولاه لكل أطفال البلد».

دارت فى ذهنى خيالات مرعبة. أين تدفن لو حصل أنها استجابت لنداء الـ ......؟ وأمسكت باليد الثانية للجدة فوجدتها باردة. تذكرت ملاحظات أحمد يوم التفتيش وهو يهمس فى أذنى :

«هل اكتشفت ذلك الجدار المخلخل فى قبر جدنا الكبير .

أحدهم كان يخبئ شيئاً أو أنه يريد أن يدخل فى القبر»

من فعل هذا؟ أتراها الجدة وهوب أعدت لنفسها ذلك المثوى. وكان أحمد خائفاً من أن تدس حملة التفتيش أنفها فى خصوصيات الموت بالأنصارية.

وكانت أنفاس الجدة المتلاحقة تقطع الكلمات التى كانت تتصاعد ثم تهمد كالزفرات «أين على .. دلال اسألى عن ابنك .. أحمد.. أحمد.. اقترب يا أحمد»

فهمست بحنان :

«أنا بقربك»

وكان أحمد فى تلك اللحظات يشاركنى الإمساك بكف الجدة، فتلاقت الأكف، ووصلنى حزن أحمد الذى بات برودة أيضاً .

«يا أحمد خذ فاطمة إلى البستان/ أطعمها رمانة من على أمها لكى يأتيك الطفل قوياً/ احذر يا ولدى فالأتراك يترصدون بك / تركجة بليورم/ يوك/ أنا وهيبة سيدتك يا سليمان بك/ قل لرجالك يأكلون طعامى ويخرجون بسلام/ أحمد ماذا فعلوا بك لن ترى ابنك الذى تحمله فاطمة/ تعال يا حبيبى كل ماء الزهر فى الأنصارية لن يغسل دمك يا ولدى»

ورفعت ليلى رأسها بغتة وهى تسمع إلى نداءات الجدة المتلاحقة، فتطلعتَ إلى ثم أطرقت .

«ليلى ليلى ليلى .. لا تتركى أحمد/ يدك مع يده لإصلاح الليوان/ هاتوا النقوش قبل أن تدوسها الأقدام/ ضعوا النقوش فى مكانها / ما رأيك يا شيخ عبد الرحمن / الشيخ عبد الرحمن الكواكبى يقول لكم يا أولاد إن مكة بانتظار اجتماعكم/ اجمعوا أوراق الأشجار اليابسة من على البلاط فالناس قادمون إلى الاجتماع/ الأنصارية لاتستقبل أحداً إلا وأرضها تقول أهلاً»

وكان زوج عيشة أختى قد وصل لتوه من الخارج. فدخل علينا واجماً، ثم وقف كالملبوس. كان باب الأنصارية قد فتح منذ الصباح يستقبل العائدين. بعد لحظة خرج لايستطيع أن يقاوم

الدموع وهو يرى لأول مرة فى حياته الجدة وهوب فى فراش المرض. لحقت به فكان يبكى عند الشجرة المعتمة. هتفت به دون ترحيب بقدومه بعد غياب :

«هل تظن أن الجدة وهوب تموت. امسح دموعك واذهب لإحضار عيشة اختى فغدا نحتفل بعودة الجدة إلى ما كانت عليه الأمور من قبل. ألا تصدقنى».

وحين عدت إلى الغرفة، كانت الجدة وهوب تنظر بعينين صاحيتين، تحدق بنا فرداً فرداً، ثم ما لبثت أن أغمضت كمن يتذكر شيئاً، ولم تفتح عينيها بعد ذلك. كانت تتمتم «يا ماهر يا ولدى.. ماذا فعلت؟.. ماذا جنيت؟.. ماذا حصدت»؟

ثم ساد سكون، وبات القلق نبضاً تسمع له أصوات فى كل أنحاء الغرفة «سيدى الجنرال/ لن ينفعك سلاح/ اردم حبس الدم فى القلعة ثم نتحادث/ لن تردم حبس الدم.. لن نتحادث/ بارليفو آرب/ كيف أحادثك بغير لغتى يا سيدى الجنرال أنت لاتفهم روح هذا البلد/ لم قتلتم عبد السلام/ لم تقتلون الناس؟/ ألم تفهم يا سيدى الجنرال أنكم غير مرغوب بكم هنا/ الأنصارية لاتهدمها القنابل»

وها هى ذى الجدة وهوب تغيب من جديد. كان قلبها ينبض

بقوة، حين هتفت العمة حنان بجنون:

«لم تأخر الأطباء هكذا؟»

قال أحمد بيأس كبير :

كلهم سيحضرون، ولن يتأخر أحد»

وضعت أذنى على صدرها، فسمعت دوياً هائلا، كجبل تتكسر حجارته وتتهاوى فوق رأسى «سلام يعود، افرشوا الأرض بالسجاد، عاد عمك يا ليلى / هذا محمد يحمل فى جبينه وسام فلسطين/ افتحوا الأبواب لفلسطين يا أولاد / أهلاً يا ابنتى.. هل أصابوك بأذى/ هاتوا المراهم / يا فاطمة اخلطى زيت النخيل بعطر الصندل وامسحى على جسدها/ قتلوها بالجراح»

وقبل أن يحضر أول أطباء العائلة متلهفاً، سمعنا الجدة وكأن بها ألما تتلوى به: أيها الشيخ الهندى/ أيها الطيب القلب احرق بخورك فى صحن الدار / وزع خشب الصندل عليهم / لاتبقوا فى قلوبكم سوى المحبة / إنهم يقتتلون لأنهم لم يعرفوا رائحة الصندل/ لا أحب البغض / الأنصارية علمتنا الحب / لاتبتعدوا كثيراً/ اقترب يامصطفى/ سعيد / عيشة/ أيها الشيخ الهندى اقرأ علينا سورة الفتح / أعطنا المحبة يا إلهى .. يا إلهى..»

* * *

- ١٣ -

وباتت الجدة بين أبنائها الأطباء وحيدة، فمكثنا عشرات من الأحفاد والأقارب ننتظر حكمهم فى صحن الدار، وكانت ليلى، كما الجدة وهوب، تقوم على تقديم الطعام والشراب للجميع، بنيما استقرت العمة حنان فى المطبخ. قالت لى حنان :

«سأقص شعرى إذا ما شفيت الجدة وهوب»

ورد عليها أحمد، وكان متورداً من آثار التحسس:

«سأقدم نفسى للخطر إذا ماشفيت الجدة وهوب»

وكانت أولى نتائج الاجتماع الطبى، أن استدعى خمسة آخرين من أشهر زملاء أبناء الأنصارية من الأطباء للمشاركة فى تقديم المشورة. وكنت أتمنى أن أحظى بتلك الفرصة للقاء المشاهير الذين سمعت عنهم، ولكن انشغالى بتهدئة الخواطر لأهل الأنصارية العائدين، منعنى من أن أكون بين الذين سيقررون مدى ماوصلت إليه الجدة .

رأيتهم ينقلون الأجهزة الحديثة إلى داخل الغرفة، يغيبون

ساعات فى الداخل. ثم يهرول أحدهم ليذهب خارج الأنصارية، ويعود بعد فترة دون أن يتحدث إلى أحد. جعلنا نتلمس الأمل فى ابتسامة أو إشارة، ولكن الفحص الذى طال أسلمنا إلى اليأس، فكان من الحاضرين من يخفى وجهه فى منديل مايلبث أن يتبلل بعد قليل، وكان من يتحرك بعصبية فى أرض الدار. تصورتهم جميعاً يعودون للبقاء فى الأنصارية، فخيل إلى أن الجدة ستطير فرحاً بهم.، سيعاد ترميم الغرف المهجورة، وستوزع الأماكن عليهم كل حسب حجم عائلته. أعلم أنها ستأمر بصنع طاولة كبيرة يجتمعون حولها للتشاور، وستكون هى فى الرأس تقرب بين المتباعدين، وتحاور من يسأل، وتقنع من يخرج عن شريعة الأنصارية فى التساوى والمحبة واللجوء إلى العقل بدلاً من القتال .

كنت أستعرض الحاضرين واحداً واحداً، فأتذكر من منعه البعد عن المجيء، وأحن إلى الذين ذهبوا ولن تكون هناك فرصة فى عودتهم إلينا. أتذكر الراحلين، اتخيلهم وكأنهم قادمون إلينا كالملائكة تحمل أخباراً طيبة .

وكنت أدفع من الأهل القلقين دفعاً كى اقترب من الباب متلصصاً لمعرفة ما يدور فى الداخل. ولم أكن أسمع سوى

الهمس، وقد سكن صوت الجدة تماماً. ومن فرجة الباب رأيت الأطباء يتشاورون همساً، بينما تعمل أجهزة تخطيط القلب والتحليل، وكانت الوجوه لاتنبئ عن أى شعور أنقله قاتماً أو متفائلاً لأهل الأنصارية المتلهفين لأية بادرة بالخير تخرج من الغرفة التى باتت معقلاً للأسرار والتخوف .

لقد انزوى أحمد بين قبرين وما عاد ينطق بكلمة، وعندما حاولت ليلى أن تقدم له صحناً من حساء العدس، تطلع إليها ترتسم فى عينيه ملامح اللوم وكأنه يقول «أهو وقت الطعام يا ليلى».

وإذا ارتسمت على ملامحها جدية الجدة وهوب، أخذ منها الصحن ليضعه جانباً، ثم ينسحب فى الظلام ليختفى فيه. وتبادلنا النظرات الحائرة، وقالت ليلى بضعف: «هل أنت خائف أيضاً؟»

كنت أتمنى ألا ينتهى فحص الجدة وهوب، وأن يظل الانتظار مغلفاً بالأمل مهما كان ضعيفاً . قلت وأنا أتخذ لى مكاناً بين القبرين، وأحمل الصحن بين يدى: «من لايخاف من تلك اللحظة»

فهتفت بى ليلى غاضبة :

«أية لحظة تتحدثون عنها. لا أرى سوى الخوف والقلق»

ثم تمتمت بحنق :

«كأنكم تدورون وتلفون حول فكرة موت أعز الناس»

ووجدت يدى تمسك بيدها فتجلس بقربى. ثم أحسست برأسها يستلقي على كتفي، وشعرت بجسدها يهتز، فوصلت الدموع عظم كتفى. مسحت على شعرها ودسست وجهى فى صدرها، وسمع لبكائها صوتاً ارتطم بقلبى فارتعش. همست بضعف :

«ليلى يا ليلى»

ثم همست بيأس :

«أحبك يا ليلى»

وكنت أردد كما كانت تفعل الجدة فى البكور وهى تصلى رافعه يديها بالدعاء لكل الأولاد والأحفاد والأقارب والجيران، ولكل أبناء المدينة.

«أحبك يا ليلى .. أحبك .. أحبك .. أحبك .»

وكان وجهها يلتصق أكثر فأكثر بصدرى، أقرب فأقرب من قلبى الذى ما عدت أشعر به .

* * *

- ١٤ -

كـانت تعلم إذن كل شىء عن صندوق الاسـرار، ولكنهـا همست فى أذنى :

«ألن أقرأ رسائلك»

فتسللنا نحو القبلية، وكانت مظلمة إلا من شمعة باقية تذهب متراقصة بضعف نحو الذبول، فهرعت ليلى بشمعة جديدة أشعلتها من القديمة، وهى تتمتم بتفاؤل :

«لا يمكن للشمعة أن تنطفئ»

وأعقبت بصوت روته عاطفة لا يمكن أن تخرج إلا من ينبوع متدفق :

«لا أتصور أحداً يحبها أكثر منى»

فأمسكت بكفها الصغيرة وقربتها من فمى، لأقبلها وأنا أهتف:

«أحبكما أكثر من أى شىء فى هذه الحياة»

ضمت الرسائل إلى صدرها، ولم تقرأ أية واحدة منها. ومع

أن ضوء الشمعة القريبة منا، كشف الحروف أمام عينيها فإنها لم تفعل. ولكن الشمعة كشفت لى أكثر كل ما يدور فى وجهها من سحر وحزن، وشوق إلى الرسائل قاومته بالذهاب بعيداً فى عمق ظلام القبلية

«أعلم أنك تحبنى، وأعلم أنى أحبك»

ثم قالت بعد صمت لم يدم طويلاً :

«يبدو أن مسئوليتنا تجاه الأنصارية باتت قدراً»

وضمت الرسائل من جديد إليها

«أتخيل كل حرف فيها»

كنت في اللحظات الأولى، أتمنى أن تقرأ تلك الرسائل. لكنى بعد ذلك بقليل خفت أن تفعل قالت ليلى بصوت أخذ من جلال المقام عمقاً يدفع بالروح بعيداً :

«هل تكتب لى دوما»

وانتفضت كحمامة

«بل أريد أن تحكى لى وجهاً لوجه. لقد مضى عهد الرسائل»..

ولم أعد ذلك الخجول. كنت أقبل يديها كما أفعل للجدة دوماً، وكانت تغمض مستسلمة للخدر الجميل. لامست شفتيها بجفاف

شفتى فتأوهت، وكانت تهمس باسمى، فيختلط اسمى بكل الصور والأفكار التى تفجرت فى داخلى، فبدا لى الأمر وكأن تشويشاً قد حصل فى الكون بأسره، فامتزج السديم بأساطير سمعتها فى الطفولة، بالإيمان بأن نصف الحبة يسعده لقاء نصف الحبة، بحركة الجدة وهوب تنشط فى أبعاد الأنصارية. خيل إلى أننى وليلى نقف على مئذنة جامع القلعة ونهتف بصوت متوحد، فيصل نداء حبنا كل بيوت المدينة، فيهلل الناس جميعاً وكأن نصراً أصاب الجميع .

أطرقت ليلى فجأة، وهى تنفض الغبار عن قماش الضريح وتمتمت:

«لايمكن لها أن تفعلها»

ثم قالت بأسى :

«هل تعلم أن الجدة وهوب هى التى شجعتنى على حبك دون أن تقول كلمة واحدة؟»

وكانت تقول لنفسها:

«متى حدث ذلك .. متى؟»

وكأن شيئاً خطيراً يحدث فى الخارج، فانطلقنا، هى أمامى تعدو وأنا أحاول أن أتماسك. لقد جاءنا هاتف، ويبدو أننا

تلقـيناه فى لحظة واحـدة. شىء مـايحـدث، أو أنه سـيـحـدث، وسيكون للأنصارية تاريخ مختلف.

كـانت الحـوش تعج بالأهل، وقـد تجـمـعـوا قـرب باب الجـدة، وكأن قراراً خطيراً سيتلى على الجمع بعد قليل. وحوم القلق فى الفـضـاء، لجم كل حـركـة أخـرجـتنا من الحلم الذى عشناه منذ قليل. خيل إلى أن ماحدث فى القبلية كان وهماً، أو أنه السراب الذى حدثنى عنه ابن العم سلام قبل أن يموت .

«شاطئ الأمان كان السراب. أن تحب هو الأمان»

وتطلعت إلى ليلى، فكانت تشق طريقـاً بين الرجـال والنسـاء، ووجـهها يقطر ولهاً لخبر يخرج من خلف الباب. وكانت أول من حـادث ابن العم حـافظ الذى خرج بحـيـويتـه التى لم تخـرج من جلده منذ سنين. وقف فى العتبة، فلم نميز بين حيويته الغريزية والخبر القاتل.

هتفت ليلى :

«ما الخبر»

فقال الطبيب حافظ بهدوء واثق :

«أى خبر يا ليلى. ليس هناك من خبر»

وخـرج من خلفـه واحـد من البـاقين الذين قد يحـملون النبـأ،

وكان متعباً ترتسم على عدستى نظارته ظلال لاتوحى بالطمأنينة. ومن خلفهما تقدم واحد من أشهر أطباء المدينة وهو يشعل سيجارة فيبدو التعب مبشراً باليأس. هتفت ليلى بحدة تمالكت نفسها خوف إزعاج الجدة :

«ما الخبر»

كنت أقرأ موت تاريخ الأنصارية فى الوجوه. افتقدت أحمد الذى لم ألمحه بعد. افتقدت الأمل فى عينى ليلى .

«هل يمكن لذلك أن يحدث»

وفوجئت بابن العم حافظ يشير إلى بيده أن أتقدم، ففعلت. وبت أمامه مع ليلى كعروسين يبارك موتهما الشيخ. سمعت تلاوات كالتى كانت تقرؤها الجدة وهوب أيام وداع الراحلين. دمدمات وطقطقات المسابح تشتد. معاول تهدم أسوار الأنصارية. النمل ينخر جسد القلعة فتتهاوى حجارتها التى قاومت أزماناً من التعسف والرعب والفرح . صحت :

«ماالخبر»

فشدنى من يدى؛ لأرى الجدة فى فراشها محاطة بالملابس البيضاء والأجهزة. كانت الجدة تغفو كطفلة لا تشيخ. وجهها يشع بالنور الذى يغلب أنوار الجامع الكبير صبيحة العيد . قال

واحد من أبناء العم :

«كان عليك وأنت تدرس الطب، أن تعرف كل ما فعلناه»

أضاف آخر وهو يستلقى على الأريكة

«هل تقول إن الطب بات عاجزاً»

فصاحت ليلى، الوحيدة التى تسللت خلفى إلى الغرفة، وهى تعض على شفتها من ألم :

«لايمكن للطب أن يكون عاجزاً»

وتطلعت إلى وكأنها تستعطف معلوماتى الهزيلة البدائية فى الطب. قال ابن العم : «أجريت كل الفحوصات المتقدمة. القلب، ووظائف الكبد، وحركة الدم فى كل عرق، تركيب الدم نفسه. الدماغ روقب بعناية، وردود فعل الأعصاب..»

هتف بعد لحظة :

«إنه الجسد الأعجوبة. فالجدة وهوب لاتشكو من أية علة»

وقال متنهداً :

«قرن من المتاعب لم يحدث أى أثر يذكر فى الجسد»

سمعتهم يقولون :

«نعتقد جازمين، وهل لهذا الجزم علاقة بالمعجزات، بأن أجيالنا القادمة ستحتفل بالعيد المئوى الثانى للجدة وهوب»

سمعتهم يقولون بمرح :

«ما حدث للجدة وهوب، مجرد ردود فعل للروح والجسد ضد أزمة أو ضيق ...»

ثم لم أعد أسمع شيئاً من تعليقاتهم التى اختلط فيها الطب بالخرافة، كنت أتقاسم مع ليلى يدى الجدة وهوب نغمرهما بالقبل، ثم كانت كفها تمسح على رأسى برفق، فما عدت أشعر، وأنا مستسلم لإغماضة لا أخالها تنتهى، إن كانت اليد التى تمسح على رأسى الذى تطير فيه السعادة، هى كف الجدة وهوب أم كف ليلى...

* * *

- ١٥ -

خلت الأنصارية من كل الأهل. العمة حنان تقرأ للجدة وهوب في كتاب قديم، وأنا وليلى في الليوان صامتين، متقاربين، متعبين ولكننا نستشعر القوة التي يمكن لها أن تفعل أي شيء.

هتفت ليلى فجأة وقد تيقظت كطائر يداهمه صوت غريب :

«هل تشم.. إنني أشم»

وكأن رائحة الصندل قد اخترقت صدري لتسري في الدم.

هتفت ليلى :

«رائحة الصندل»

انتشرت رائحة الخشب الذكي الذي حدثتنا عنه ذات يوم الجدة وهوب. وكانت قطعة منه مازالت مستقرة على رف في غرفة الجدة. كانت رائحة الصندل تعم الفضاء الذي خيم على الأنصارية كأنه غيم معطر يمطر الأرض بالرذاذ الذي لايرى .

قالت الجدة وهوب للشيخ الهندي الذي استضافته شهوراً في الأنصارية، فاختار غرفة صغيرة، انقطع فيها لصلاته وقراءاته

السحرية. قالت له ذات مرة :

ألا نستطيع أن نزرع شجرة الصندل فى ترابنا، فخشبها من الصعب الحصول عليه» فقال لها الشيخ آنذاك:

«أنت شجرة الصندل»

ولم تستطع، كما حدثت جميع الناس بعد رحيله، أن تفهم سر الحديث «كنت أريد أن أسأل عن تلك الشجرة التى لاتموت أخشابها بعد قطعها، لأنها تظل. لكن الشيخ الهندى لم يشأ أن يفعل»

كان الربيع طبيعياً فى ذلك الصباح، وكانت الرائحة تعبر الرئتين كأنسام الحرية المتواترة. تذكرت أحمد فجأة، فتساءلت :

«أين ذهب أحمد؟»

فتمتمت ليلى باسترخاء :

«بقربى»

كنت أتساءل عن أحمد الذى غاب منذ البارحة ولم يعد. فقالت ليلى باستسلام : «لابد أنه سيعود. مهما طال الغياب فسيعود»

فلبثت ساكناً أفكر .

بحثت عنه فى كل الغرف المهجورة والباقية، ولم أشأ أن

أسأل الجدة وهوب التى كانت مستغرقة فى الإصغاء إلى قراءة العمة حنان فى الكتاب القديم. خرجت إلى المدينة التى عاد إليها الهدوء، وجلت فى السوق، وفى الشوارع، فعدت خائباً.

«عشت وحيدة، ولكنكم كنتم عزائى فى غربتى»

قال أحمد الذى كان بقربها يتطلع إليها بحب :

«ما عدت وحيدة»

وفى الليلة التالية أكملت لنا الحكاية التى ظلت حبيسة صدورنا، أنا وأحمد والجدة وهوب .

* * *

- ١٦ -

في المســاء جلست تحت الضـوء أقـرأ الوصـيـة من جـديد، وكانت ليلى قد تركت لى حنانها على الكرسى المقابل. سكون فى الأنصارية، والوصية، والوصية تحرك كل شىء فى الداخل .

وعندمـا كنت أقـرأ الوصـيـة مع ليلى بعـد مـدة، كـانت تطرق باهـتـمـام، ولكنـهـا مـا تلبث أن تفـرد رسـومـهـا التى بدأت فى إعدادها عن ترميم الأنصارية. وعادت الجدة وهوب إلى تطوافها فى كل مكان. وكانت رائحة الصندل تنتشر يوماً وتختفى أياماً.

وكثيراً ما كانت ليلى تتوقف عن حديث أو مراجعة لرسومها التى بدأت تظهر بالألوان، وتهتف : «هل تشمها»

فأهز رأسى موافقاً بينما صدرى يمتلئ بتلك الرائحة .

وعندمـا عدت إلى تلك العـادة الغـريبـة فـى الكتـابة السـرية، والتى باتت الآن تسـجيـلاً لكل ما حـدث أو قـيل، أصـبـحت أقل إلحاحاً فى السؤال عن أحمد، الذى أكدت لى الجدة أنه سيعود حتمـاً. ويوماً بعد يوم، بات الحديث عنه مع ليلى التى لم تنقطع

يومــاً عن زيارة الأنصــارية. أو مع العــمــة حنان، جـزءاً من استعادة تاريخ خاطف.

وتساءلت مرة وأنا أتابع الكتابة :

«هل كان مذعوراً من أن يرى نهاية لم تحدث للجدة وهوب؟»

وتسـاءلت مع ليلى عن أحـمـد طويلاً، فكانت تبتسم مطمئنة، وتعلن أن كل شيء سيكون جيداً عندما تنتـهى الرسـوم التى ستعيد للأنصارية مجدها القديم .

وعندما كنت أضع رأسى فى حجر ليلى تداعب شعرى بحب، كنت أتحدث عن الجدة وهوب. وإذ أغمر وجهى فى حجر الجدة تمسح على رأس برفق، كنت أحلم بليلى. وفى كل الأحـوال كنت أتابع الأحداث، تسجيلاً أو تخيلاً، فى كل لحظة تمر على. وإذ يتناهى إلى سمعى أصوات إطلاق النار فى مناطق متفرقة من المدينة، تتـردد بين يوم وآخـر، كنت أهرع إلى الجـدة وهوب فأجدها مطمئنة تصغى لحظات إلى الأصوات التى تعكر صفو المدينة، ثم تعود إلى قراءتها غير مبالية، وكأنها تجد إجابة لما يحدث فى تلك الأوراق، فأجد نفسى تبحث عن ليلى التى كان لايقتصر وجودها فى الأنصارية على الحضور، بل كان يتعداه أحياناً إلى المثول فى كل مكان. وكثيراً ما كنت أشتاق إليها

فـأطيل النظر خلسـة إلى الجـدة وهوب، لأجـدهـا هنـاك على الكرسى المذهب تقرأ بصمت واستغراق، فـأسمع كلمـات صـامـتة تخرج من بين شفتيها المضمومتين إلى أصرار لايفارقها :

«وأنا أيضاً أحبك».

* * *

صدر من هذه السلسلة

من أعـــدادنا القـــادمة

* إشراقة .... التِّجانى يوسف بشير
* قصائد الوجد والدم...................... من شعر فدوى طوقان
اختارها : د. محمد زكريا عنانى
* العَلاّمة.. بنسالم حميش

رقم الإيداع : ٢٠٠٢/١٧٦٠٣

شركة الأمل للطباعة والنشر
(مورافيتلي سابقاً)

زهرة الصندل

وليد إخلاصى

تنتمى هذه الرواية العربية إلى الواقعية السحرية، حيث يتداخل فيها الواقع العربى المعاصر بالأسطورة تداخلاً فنياً بديعاً، وتحتل الجدة (وهوب) أم الأنصارية وزعيمتها دور الرمز الذى يعمل لأكثر من قرن - عمر الجَدَّة - على تجميع أفراد العائلة على مدى أربعة أجيال تنتمى إليها، ترتبط هى و(الأنصارية) بالتاريخ الحديث لسوريا منذ الاحتلال العثمانى فالفرنسى فالتحرير، وتنمو الأحداث عبْرَ الجَدَّة وأحفادها محملاً بالزمن الروائى، ممثلةً لأبعاد الماضى والحاضر والمستقبل فى نمو درامى متصاعد يعايش الواقع بكل صدقه، ويشكله بحرارة فنية شديدة التأثير والواقع.



الثمن: جنيهان

الأمل للطباعة والنشر